

إليوت سميث وأصل الحضارة



حين أتأمل الشخصيات العظيمة التي أثرت في حياتي تغييراً أو توجيهاً ،
وأبحث القوة الجذبية التي جذبتني إليها ، أجد أنها ثلاثة طرز :
فأما الطراز الأول فهو أولئك الذين تتسم حياتهم أو مؤلفاتهم بغلواء
حين يحيون أو يفكرون على القمة والذروة . فهم نيتشه في جنونه المقدس ،
بحيل حياته إلى مغامرة فلسفية ويدعوننا إلى أن ننسلخ من رواسب
الخرافات الماضية ونتولى بأنفسنا مصير مستقبلنا . وهم دستوفسكي
في غلواء الحب الغامر للبشر ، والإحساس الديني الذي تتذبذب به أوتار
نفسه . وهم غاندي الذي يكافح إمبراطورية سوداء بكلمات عذبة من
لظهر والشرف فيخجل منه العالم ويسلم باستقلال الهند .
وأما الطراز الثاني فهو أولئك الذين أعطوني منهجاً للحياة . فهم

جيته الذي عاش طالباً مدى حياته يزيد وجدانه بالتوسع في الثقافة والزيادة من الاختبارات ويشغل بالسياسة والأدب والعلم والفنون . وهم برناردشو يجعل من أدبه كفاحاً للظلم والاستبداد والدناءة والقبح وهم « ه. ج . ولز » يرفع الصحافة إلى مقام الفلاسفة ، فيدرس شئون العالم إلى تدين بشري جديد كأنه إحساس يغمر قلبه وعقله .

وأما الطراز الثالث فهم أولئك الذين أعطوني المعارف الخصبية أو الأفكار الحوامل . مثل فكرة التطور التي أحدثت لي مركبات ثقافية كأنها العمدة النفسية في المريض تدأب في تفرع . ولكن مع التسلسل والتستر . ولقد استطاعت هذه الفكرة الداروينية أن تجعل حياتي جميعها استطلاعاً دائماً . وهم فرويد الذي حملني على دراسة العشرات من الكتب ، وهم « إليوت سيميث » الذي فتح لي من أبواب التاريخ البشري ما لا أزال أنفذ منه إلى ميادين فسيحة من الفهم والعلم .

هؤلاء علموني . . أكسوني ، بالحياة الغالية التي عاشوها على القمم إجماعات كأنها صلوات بالقلب . أو أعطوني منهجاً أعيش به عيش الخدمة والكرامة والشرف مع الرضى بالتضحية . أو غرسوا في ذهني غراساً صالحة تنمو وتتفرع كأنها نبت ينير خلايا المخ ويسطح أنواراً تقشع ظلام الجهل .

* * *

التاريخ هو في صميمه درس العوامل الجغرافية والاقتصادية التي أثرت وغيرت المجتمعات البشرية التي عاشت في بقعة معينة من الأرض . وتاريخ مصر هو جغرافيتها ، هو زراعتها التي أوجدت مجتمعاً مستقرّاً يثبت في مكانه ثبات الزراعة في الأرض .

وليس لأمة تاريخ مالم يكن هناك تفاعلات اقتصادية بين الأفراد بحيث تؤدي هذه التفاعلات إلى إيجاد مؤسسات مثل المحاكم والمعابد ونحوهما . أما مادام ليس هناك مؤسسات . كما هي الحال بين الأسكيمابوين حول القطب الشمالى . فإنه لن يكون هناك تاريخ .

ثم مادام كل فرد يكسب لنفسه وأولاده فقط ، ولا يستطيع أن يريد ، فإن المجتمع لن يستطيع أن يدخر مقداراً من المال لإيجاد هذه المؤسسات الاجتماعية التى يحتاج إليها . ولذلك ليس عند الأسكيمابوين حكومة لأنه ليس هناك فائض من كسب الأفراد يكفى لإيجاد مجموعة المؤسسات التى نسميها حكومة . ولذلك أيضاً ليس لهم تاريخ .

وقد كان الإنسان قديماً يعيش فى الغابات كما لا تزال تعيش القردة العليا . وكان يجمع طعامه ولا ينتجه . والفرق عظيم جداً بين الجمع وبين الإنتاج .

فإن البشر ينتجون طعامهم هذه الأيام ، ولذلك بلغوا ٢٣٠٠ مليون . فى حين أنهم كانوا لا يزيدون على أربعة أو خمسة ملايين حين كانوا يجمعون الطعام من الغابات جمعاً ، أى يلتقطون الثمرة البرية أو يقتلعون الجذور الطرية أو يصيدون الوحش أو يأكلون الحشرات والزواحف وسائر الحيوان .

ولكن ليس الفرق بين الجمع والإنتاج كميّاً فقط . لأن هذا الفرق هو فى صميمه فاصل بين الإنسان البدائى الساذج الجوال ، وبين الإنسان المتمدد المستقر الذى عرف الزراعة أى عرف الإنتاج . وهنا قيمة إليوت سميث .

• • •

كان إليوت سميث أستاذاً للتشريح فى كلية (مدرسة) قصر العيني

قبل نحو أربعين أو خمسين سنة . وقد تعلم على يديه كثير من أطبائنا مثل على إبراهيم وجورجى صبحى وأحمد شفيق . وكانت له هواية إلى جنب الحرفة ، وكان ، كما هو المؤلف ، يهتم بهويته وبحرفته . بل انتهى في أخريات حياته إلى احتراف الهواية .

وهذه الهواية هى تاريخ مصر . ولكنه لم يكن يدرس تاريخ مصر كى يتعرف على تاريخ مصر ، وإنما كان يهدف إلى درس تاريخ الحضارة البشرية فى العالم كله عن طريق المدرس لأصول الحضارة المصرية التى انتشرت حول ضفتى النيل فى العشرة آلاف سنة الأخيرة .

واستطاع أن يثبت أن مصر هى أصل الحضارة للعالم كله ، وليس ذلك لأن أسلافنا كانوا أذكى من سائر البشر ، وإنما لأن جغرافية مصر قد تفاعلت مع الإنسان المصرى بما لم يتفاعل أى وسط آخر مع الإنسان ، فكانت النتيجة ظهور الحضارة فى مصر .

وبهذه النظرية نقل إليوت سميث دراسة الحضارة من تعدد الأصل إلى وحدته ، كما سبق أن فعل داروين حين رد الأحياء إلى أصل واحد وأصبحنا نتتبع تطور الحضارة وتنقلها من قطر إلى آخر عن سبيل الكلمات والآثار والعمادات الفرعونية .

ولهذا رأى الحديد مدرسة يعد تلاميذها بالألوف ، ولا تقل المؤلفات فى تأييد هذا الرأى عن ثلثمائة كتاب فى لغات مختلفة .

وقد كانت مؤلفيات إليوت سميث عندى انبلاجاً ذهنياً قادنى إلى دراسات مختلفة ، كما أثمر مركبات ثقافية ما زلت فى اشتباكتها . وقد ألقت كتابى : « مصر أصل الحضارة » وأنا فى غبطة الفرح بهذا الفهم الجديد للدنيا والبشر .

ولا يعدل هذه الغبطة عندي سوى اهتدائي إلى نظرية « التفسير الاقتصادي للتاريخ » . وهي النظرية التي جعلت التاريخ علماً يقاس وبوزن : وليس روايات لذينة أو مصادفات غير معالة . والحق أن نظرية الأصل المصري للتاريخ البشرى كله تستند في أساسها إلى العوامل الاقتصادية : وأهمها هذا النيل الذي يروى الوادى فينتج الزرع .

• • •

وبؤرة البحث عند إليوت سميث تنحصر في أن الإنسان البدائي الذي كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى في مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يعم الوادى في مواعيد معينة كل عام : حتى إذا انحسر انطلقت النباتات وكست الأرض بالحضرة الخضرة التي كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانية . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيوية : وهو أصل النبات : فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك . وينسط الرى . وهذه هي الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظمون الرى وفلكيون يعينون الأوقات الزراعية . وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول . وهنا تنشأ الحكومة التي يرأسها مهندس أو فلكي تنسب إليه صفات الألوهية لأنه يدرى ما لا يدريه غيره من الهندسة أو الفلك : وهو يعيش كأنه ملك بل ملك يطاع . فإذا مات أصبح قبره معبداً ، كما نرى في عصرنا كيف يميز العامة الممتازين بأضرحة يتبركون بها ويذرونها .

. . وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تحترم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين للزراعة : وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ، وإلى صناع يصنعون الآلات الزراعية . وكل هؤلاء لا يزرعون . فنشأ من ذلك الحكومة والتجارة والفنون . وهذه هي الحضارة .

ثم يموت العظماء فتنشأ الأضرحة العظيمة التي تستحيل إلى معابد .
وهذا هو الدين البدائي .

ويجب ألا ننسى هنا أن كلمات القمح والبر والحنطة هي جميعاً
فرعونية وذلك لأن أسلافنا هم الذين زرعوها لأول مرة في التاريخ وعينوا
أسماءها ، ولعله كانت هناك فروق بين بذور القمح أدت إلى تعدد
هذه الأسماء .

والزراعة هي الأساس الأول الذي نبتت عليه الحضارة الأولى .
أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير
المعارف القليلة الخاصة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .
فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلا من التجوال ، وبسطت الآفاق
لثقافة الثمنون والعلوم ونظام الحكم .

• • •

وإلى هذا نفهم كيف نشأت الحضارة الأولى في مصر . وبقى علينا
أن نعرف كيف خرجت من مصر إلى سائر العالم .
وقد استطاع إليوت سميث أن يكشف لنا عن أسرار النفس البشرية ،
أو بالأحرى يهتدى إليها عن طريق البحث في انتقال الحضارة المصرية
الأولى إلى أقطار العالم المختلفة .

فهو يوضح لنا أن غاية الإنسان البدائي أن يطيل عمره وأن يتقن
الموت . ونحن نعرف من التحنيط أن المصري القديم كان يعتقد في
سذاجة أنه مادامت الجثة قد حنطت واستحالت إلى مومياء متقنة فإن
الحياة ستمتد بها في العالم الآخر .

وكان التحنيط يحتاج إلى بعض المواد النباتية والمعدنية من الأقطار
البعيدة ، وهذه المواد كانت تقف الفساد في الجثة كما تكسبها عطراً حسناً .

وتنقل المصريون في جلب هذه المواد ونقلوا معهم حضارتهم إلى أقطار بعيدة ، وخاصة عندما نعرف أن بعض البعثات المصرية كان ينقطع بها الطريق فلا تعود بل تبتى في قطر ناء بين شعب غريب بدائي لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصرية ، وتعيش هناك إلى الأبد . ومن هنا نعرف لماذا وجد تمثال الرب آمون في روسيا بالقرب من جبال أورال . ولماذا عبد رب الشمس في مكسيكا ، كما عبد في مصر ، من حيث إحاطته بالثعبان . ولماذا حنطت الجثة في أمريكا على الطريقة المصرية . ولماذا وجدت الأهرام في إيطاليا والسودان . ولماذا توجد في اللغة الفنلندية كلمات فرعونية . ولماذا ترجع أبجدية الخطوط في جميع اللغات إلى الهيروغليفيه المصرية . ولماذا يعمم التقويم المصرى (الشهور والأيام) أوربا بل العالم كله إلى الآن ، ولماذا بنيت المعابد وذكرت الأساطير على الطريقة المصرية . بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة ، ابن الشمس ، أى ابن رع . وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التى يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصرية الاسم كما سبق أن ذكرتها وهى : قمح ، بر ، حنطة .

وفى مصر يسمى الأقباط أسقفهم أحياناً باسم إيسندوروس . وفى أوربا تسمى المرأة باسم إيسيدورا . ومعنى الأسمين « عبد إيسيس » أى الربة إيسيس . وكهنة مصر الآن هم ورثة الكهنة أيام الفراعنة . وكانت شارة الكاهن المصرى القديم ذلك الثعبان الذى كان يحيط بالرب رع . وهو — أى الثعبان — لا يزال شارة الأسقف القبطى . وهو يرى على رأس عصاه إلى الآن .

ولكن لما كان الكاهن المصرى طبيباً وساحراً أيضاً ، فإن الثعبان هو الآن شارة الطبيب فى أوربا . وفى اللغة العربية لا يزال معنى الطب هو : السحر : الكهانة .

بل هناك إشارات صغيرة تدل على تسلسل الثقافة الفرعونية من منف وطيبة إلى باريس ولندن . اعتبر قول الأوربيين « يوم أحمر أو ليلة حمراء » للدلالة على أوقات السرور والقصف والاحتفال . ونحن نقول في مصر « ليلة حمراء » في هذه المعاني أيضاً : والأصل هو عادة أسلافنا في كتابة أيام الأعياد بمداد أحمر . والعيد قصف ولهو .

هذه الثقافة المصرية القديمة التي تفتت في العالم القديم لم يكن من الضروري أن يكون القائمون بها مصريين ، لأن البعثة المصرية التي وصلت إلى الصين مثلاً حيث تركت التماسح وجعلت تمثاله شعاراً للصينيين ليست هي التي ذهبت إلى أمريكا وأوجدت التحنيط وعبادة الشمس التي تحيط بها هالة الثعبان . لأن هذه البعثة التي ذهبت إلى أمريكا كانت في الأغلب هندية أو صينية أو جاوية قد تأثر أفرادها بالثقافة المصرية .

وأذكر البقرة هاتور المصرية ، وأذكر تقديس البقرة في الهند ، وأذكر أيضاً ملوك إفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رمزاً إلى الاستيلاء على العالم .

بل أذكر أيضاً دعوى الحق الإلهي للملك أوربا ، وهي الدعوى التي كافحتها الشعوب الديمقراطية . ولانس دعوى الألوهية عند الفراعنة . بل هناك ما يرجح أن معظم الأسر المالكة في العالم يرجع إلى أصل فرعونى ، وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب المواد والطيب للحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون ، فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الفرد ملكاً على البقعة التي كانت تحتلها بعثته حتى إذا استقر العرش الجديد خرجت بعثة أخرى . إلخ .

ولم يكن التحنيط الباعث الوحيد لهجرة المصريين إلى الأقطار

البعيدة . فإن الإنسان المصرى الذى كان يرغب فى بقاء حياته بالتحنيط ، كان أيضاً يحب أن يطول عمره على الأرض قبل التحنيط . فكان يجمع الودع ويحمله للمشابهة العظيمة بين الودعة وبين عضو التناسل فى المرأة ، ذلك أنه كان يعتقد أن هذا العضو هو أصل الحياة ، ومن هنا هذا الاشتقاق العربى وهو « الحياة من الحيا » أى عضو التناسل فى الأنثى . ثم صار أيضاً يجلب الذهب ويصوغه ودعاً لجماله . ثم نقل ميزة الودعة إلى الذهب . فصار الذهب يطلب لذاته لأنه يطيل الحياة مثل الودعة ، بل صار الذهب إكسير الحياة .

الذهب حجر الفلاسفة ، الذهب أضل النقود ، كل هذا من الاعتقاد المصرى القديم بأنه ، أى الذهب ، يطيل العمر .

ثم أذكر بعد ذلك الكيمياء التى نشأت من الرغبة فى إحالة المعادن إلى ذهب . بل ماذا أقول : إن كلمة كيمياء نفسها مصرية وهى خيمى أو كيمى ، أى مصر ، أى الأرض السوداء . والكيمياء هى « العلم المصرى » .

وبعد الذهب صار الإنسان المصرى يجلب الأحجار الكريمة اعتقاداً بأنها تطيل العمر . وما زلنا فى مصر نشق العين العليقة بتعليق حجر عليها أو فوقها . . . وما زلنا ننشد البخت بضرب الودع ، وكلمة « المرجان » تنطوى على معنى الحياة الطويلة فى الفارسية .

وإطالة أعمارنا على الأرض بالذهب والأحجار الكريمة ، وإطالة أعمارنا بعد الموت بالتحنيط ، كلتاهما دفعت الإنسان المصرى إلى الهجرة إلى الأقطار النائية . فتفتشت الحضارة المصرية بهذه الهجرة فى أنحاء العالم وأخرجت الإنسان من التوحش وجمع الطعام من الغايات إلى التمدن وإنتاج الطعام بالزراعة . والزراعة أوجدت الحكومة ، والدين ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، والبناء ، والقانون .

نشأ الدين البدائي في مصر وكانت غايته استبقاء الحياة بعد الموت بتحنيط الجثة . فإذا كان الميت عظيماً صار إلهاً بعد موته . فلما عرفت الزراعة أصبح للدين مهمة أخرى هي إخصاب الأرض وإنتاج المحاصيل . وإلى عصر الإسكندر بقي هذا التفكير البدائي حتى إن كهنة مصر قد حالوا الإسكندر إلى إله . وقرن آمون لا يزال منقوشاً على النقود الإغريقية الباقية من أيامه . ولا يزال الكهنة يباركون على الزراعة في أوروبا إلى الآن . ومن الممارسات الدينية الباقية نعرف الكثير من نشأة الدين المصري القديم . فإن البخور كان يطلق على تمثال الميت كي يكسبه رطوبة وعرقاً كأن الحياة قد عادت إليه .

وقد نشأت الفنون من هذه الثقافة الدينية القديمة . فإن التمثال صنع أولاً كي تلمجأ إليه الروح إذا كان الجسم قد فسد . والرسوم التي تروى لنا حياة الميت قد احتاجت إلى الرسامين والمعبد ، وهو في الأصل الضريح الذي احتاج أيضاً إلى البنائين والنحاتين .

وجميع الفنون الحديثة ترجع إلى بؤرة مفردة هي الضريح المصري ومركباته السيكلوجية . ورسم الميزان للعالم الآخر مألوف لا يخلو منه معبد ، وهو يعين اللجنة التي تحوى الشجر والتمر للبررة ، كما يعين جهنم التي تحوى النار للفجرة . ومن هنا ظهر معنى العدل .

بل إن تحنيط الميت هو الأصل في توبلة الطعام . لأن الملح والطيب والأفاويه التي كان يحتاج إليها الميت صارت تستعمل في الطبخ كي يطيب الطعام ، ومن هنا كان القول العامي المألوف في أيامنا أن الطعام « محنط » أى متوبل .

ودراسة التاريخ المصري القديم هي دراسة البدايات ، بداية الزراعة وبداية الصناعة ، وبداية الحضارة والثقافة . وإن الغيبيات التي سادت

الأذهان البشرية نحو ستة آلاف سنة لتتكشف واضحة الأسس مفهومة البناء عندما ندرس الضريح المصرى .

• • •

لم أكن أنبعث فى دراساتى للفراعنة بياعث وطنى ، ولم يكن لفتوحات تهمس ورمسيس وأمثالهما ذلك الوقع الذى يحسه أولئك الذين يستخدمون التاريخ لإشعال الوطنية . بل كذلك لم تكن دراسة التاريخ عندى محض السرد القصصى والتراجم والحروب . وطنى أنه لو لم يكن وراء دراسة الفراعنة هذه النظرية القائلة بانتشار الثقافة من بؤرة الضريح المصرى لما كان التفانى يزيد على المطالعة العابرة .

ولكن هذه النظرية كانت تحوى العديد من المركبات الثقافية التى جذبتنى وحملتنى على التفتن لأصول الحضارة ، ومن هنا إغراؤها القوى لا استمرار الدراسة . وإحساسى نحو الفراعنة هو لذلك بشرى وليس وطنياً .

ولقد قرأت « فجر الضمير » للمؤرخ الأمريكى « بريستد » . وهو يشيد بالأخلاق العالية للمصريين قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة . بل إنه يقارن بين الأخلاق التى دعا إليها موسى فى الوصايا العشر وبين الأخلاق المصرية فيقول بأفضلية هذه على تلك ، ويضرب المثل بأن موسى قد حرم الشهادة بالزور فقط ولكن المصريين قد حرموا الكذب إطلاقاً . والكذب بالطبع يشمل شهادة الزور ، ولكن ليس العكس كذلك .

ولكنى ، أنا المصرى ، أحس أنى أبعد ما أكون عن هذا الإحساس .

يجب أن ندرس التاريخ بالروح البشرى ، وأن نذكر أنه إذا كانت مصر قد أنشأت الحضارة الأولى فإن الفضل فى ذلك يعود إلى النيل الذى فهر المصرى على أن يتعلم الزراعة لمواظبة فيضانه ولانبساط

الوادى ، وليس لذكاء فذنى أسلافنا .

• • •

والحضارة عالمية قد أسهم كل شعب بنصيب فيها . وإذا كان للمصريين فضل الاختراع للكتابة فإن للهنود فضل الاختراع للأرقام ، وما كان يمكن أن تكون هناك نهضة علمية لولا هذه الأرقام الهندية . ولولا الإغريق لما انفصلت الحقائق الفنية والعلمية عن « المعارف » الدينية أى ما كان يمكن للمنطق أن يتغلب على العقيدة . ولولا الإمبراطورية الرومانية ثم الإمبراطورية العربية ، لما تعارفت الشعوب هذا التعارف الذى انتهى بوجودنا البشرى الحاضر .

ومع أنى قد قرأت فى هذه النظرية وارتباطها نحو خمسين أو ستين كتاباً فإنى ما زلت فى اشتباكاتهما أترصد مكتشفاتها الجديدة فى جميع أنحاء العالم . وأحس بأواصر الأجيال الماضية التى تربطنا نحن المصريين بكافة البشرية :

هافلوك إليس والزواج الانفصالي



مات « هافلوك إليس » قبل الحرب الكبرى الثانية ، ووصفته إحدى المجلات الأوربية الكبرى حينئذ بأنه كان أعظم رجل متمدن في أوروبا . وأنا أحاول هنا أن أروي للقارئ تاريخ حياته ، ووصف مؤلفاته ، كي يستخرج العبرة من هذا الوصف . لأنى أعتقد أن عندنا في مصر من يخالف هذا الرأى ، فيحكم بأن هافلوك لم يكن متمدناً وإنما كان متوحشاً . وأنه لم يعيش الحياة الصالحة . وإنما هو أفسد حياته بل حياة زوجته . والواقع أن شيئاً من هذا الفساد قد وقع لزوجته . . . ولكن ليس هناك ما يدل على أن أسلوب الحياة الذى اتخذه هو الذى أدى إلى هذا الفساد ، وإن كان هناك شبهات تبعث على هذا الظن .

وإذا أنت سألت عن هافلوك إليس فى إحدى المكتبات بالقاهرة عرفت

أنه معروف مشهور بمؤلفاته الجنسية . وهي نحو ستة مجلدات ضخمة هي أدب وعلم وفلسفة ، تحس وأنت تقرأها أن كاتبها رجل فن وعلم وفلسفة . وهو يكتب بأسلوب مكن قد أحكمت عباراته كما نقيت من الزوائد . وهو كثير الإشارة إلى أقوال الفلاسفة من الإغريق القدماء إلى الأمريكيين المحدثين . وهو لا يرتجل الفكرة ولا يلتزم مذهباً . وإنما يزن الآراء ويعرض لها في إسهاب شرحاً ونقداً . ثم ينتهي إلى الخلاصة التي يستقر عليها ويدعو إليها .

وهذه المجلدات الستة عن الشؤون الجنسية هي أروع ما كتب عن هذا الموضوع في لغة من لغات العالم . وإنك لتعجب حين تقرأ له فصلاً واحداً عن البغاء . إذ تدهش لما يروى لك عن تاريخه في الأمم القديمة والحديثة ، وعن قيمته ومكانته من الحضارات المتعاقبة ، وعن أقوال القديسين المسيحيين الذين أيدهم ، وعن القوانين العصرية التي تناولته . وحبذا لو قرأ هذا الفصل ودرسه أولئك الذين عملوا لإلغاء البغاء في مصر ، ولكن نكبة الساسة في مصر أنهم لا يدرسون الكتب الأوربية المنيرة .

كان هاقلوك إليس من الرواد الذين شقوا الطريق وبسطوا الآفاق لهذه الدراسات قبل فرويد . فإن نشاطه العلمي كان في ذروته فيما بين عامي ١٨٩٠ و ١٩٢٠ . وهناك فرق أصيل بينه وبين فرويد ، ذلك أن هاقلوك إليس كان يبحث الشؤون الجنسية من حيث إنها نشاط سليم يتصل بالأصحاء من الناس ، ويبحث أثرها في حياة الشبان العزب والمتزوجين وفي الحياة العائلية وتربية الأطفال وماكانها في الحضارة ، أما فرويد فيبحث النشاط الجنسي من ناحية المرض لا الصحة .

وقد كان فيما بين عامي ١٨٩٠ و ١٨٩١ يرأس تحرير سلسلة من الكتب العلمية التي تتناول المجتمع بالبحث العلمي وتضم مجلدات تبحث

الإجرام وأخرى تبحث المشكلة اليهودية وأخرى تبحث الوراثة . . . إلخ .
كما أن له مؤلفات يكتفى ذكر أسماؤها كى نعرف أن موضوعاتها
أدبية ، مثل رقص الحياة . وروح أوروبا .

وهو فى كل ما يكتب يمتاز بالنضج والإحاطة والنزاهة ، إذ هو
لا يتسبب إلى حزب أو طائفة ولا يدافع عن مذهب . وإذا نحن أهتمناه
بالغرض أو بشيء منه فإن هذا الاهتمام ينحصر فى إكباره من شأن
النظرية العلمية ، وهو هنا يعذر فإنه عاش فى أواخر القرن التاسع عشر
وامتد نشاطه إلى الثلث الأول من القرن العشرين . وكان الإيمان
بالحضارة والرقى يعتمد أكبر الاعتماد على العلم . فإن الأمم الأوروبية
طوال القرن التاسع عشر كانت على اقتناع بأنها قد اهتمت عن طريق
العلم إلى مفتاح يفتح لها جميع الأبواب المغلقة ، وأن سعادة الإنسان
وقوته وصحته وثقافته كلها ترتبط بالعلم .

وقد نشأ طبيبياً . ولكنه لم يمارس الطب لأنه قنع بالتأليف وقضى
معظم حياته وهو فى فقر لم يشك منه . ولكن المتأمل لسيرة حياته التى
كتبها بنفسه يحس الضيق الذى كان يعانیه . فإنه كان يسكن مسكناً
وضيعاً ويطبخ طعامه بنفسه ، إذ لم يكن يكسب من قلمه ما يكفى لتناول
طعامه فى المطاعم أو يمكنه من استخدام خادم . ولكنه فى السنوات
الأخيرة من عمره تمكن من الاتصال بإحدى الصحف الأمريكية التى
كانت تستكتبه مقالا أسبوعياً عن شئون أوروبا ، وقد صرح بأن الأجر
الذى كان يتناوله عن هذه المقالات كان يزيد أضعافاً على ما كان يحصل
عليه من التأليف والصحافة معاً فى بريطانيا .

ومع أنه قد مات منذ أكثر من عشر سنوات فإن مؤلفاته ما تزال
تقرأ وتجد الأنصار والخصوم لحيويتها ، حتى لقد قرأت هذا الأسبوع

إعلاناً عن كتاب جديد ينشر له في الولايات المتحدة ويقول الناشر إنه لم يسبق نشره .

وفي كل ما ذكرنا لا نجد شيئاً فذاً أو شاذاً في حياة هاقلوك إليس ، إذ هو مؤلف أو صحفى مثل سائر المؤلفين أو الصحفيين . وإن كان يمتاز عنهم بأنه جاد مثابر نزيه مفكر متبصر ، وليست هذه الصفات عامة بين من يؤلفون أو يكتبون للصحف .

ولكن ميزته الأصلية أنه اتخذ أسلوباً أميناً في عيشه لم يتخذه غيره . وهذا الأسلوب هو الذى حفزنا إلى كتابة هذا الفصل كى ننبه القارئ المصرى إليه . ولسنا نشك أنه سوف يجد التقبيح والازدراء من تسعين فى المائة من القراء كما قد يجد الاستحسان من عدد قليل . ولكن ليس هذا غرضنا . إنما نحن نقصد إلى أن نوضح العوامل التى أدت إلى اتخاذ هذا الأسلوب وتقديره فى الحضارة القائمة .

فقد عرف هاقلوك إليس فتاة إنجليزية تدعى الآنسة « إديث ليز » قبل نحو ستين سنة . وكانت هذه الفتاة من أولئك الفتيات الحديدات اللاتى كن يسمين فى إنجلترا باسم المرأة الحديدية ، وقد كن منذ عام ١٨٩٠ أو قبل ذلك يدعون دعوات جريئة مثل التعليم الجامعى للمرأة ، ومثل حقوق الانتخاب للمجالس النيابية ، والمساواة الاقتصادية بين الجنسين ، وتولى الوظائف العامة .

وكانت إديث ليز أكثر إيماناً بهذه الحقوق وأكثر إصرافاً فى الدعوة إليها ، وكانت سكرتيرة لأحد الأندية النسوية فى لندن . وكانت تقول إن البيت على حالته الحاضرة - أى حوالى سنة ١٨٩٠ - هو طاحون تسخر فيه الزوجة فتعمل طول نهارها وبعض ليلها وهى مجهددة لا يتوافر لها الوقت للراحة أو الاستمتاع الاجتماعى أو الثقافى . وأن

هذا الكد المستمر في البيت ، من حيث الاشتغال بالطبخ والغسل والكنس ، يمكن الاستغناء عنه بأن نتناول وجباتنا في المطاعم .
 وأنه يجب على كل امرأة أن تؤدي عملاً اجتماعياً بأن تحترف حرفة تكسب منها كما يفعل الرجال . لأن الاحتراف هو تربية دائمة لها ، وهو يكسبها المال الذي يرفعها إلى كرامة اقتصادية يحسبها الزوج في احترامها .
 وهي حين تحترف تحس مسؤوليات كبيرة لم تكن لتحس بها لو أنها كانت قد قنعت بالنشاط المنزلي في الطبخ والغسل والكنس ، وأن الحرفة هي الوسيلة لتكوين الشخصية ، ولن تكون للمرأة شخصية إذا هي قنعت بأعمال البيت .

والحق أن هذه الآراء كانت عامة حوالي سنة ١٨٩٠ ، ولكنها كانت آراء في الهواء ، إذ لم تكن تجد ما يدعمها من النظام الاقتصادي السائد وقتئذ ، لأن الرجال كانوا يستوعبون الأعمال ، ولم يكن هناك غير عدد صغير جداً من النساء اللاتي كن يعملن ويكسبن .

ويجب أن أقول إن هذه الحال قد تغيرت في أيامنا هذه ، فإن نحو عشرين مليون امرأة يحترفن الحرف التجارية والصناعية والمكتبية كالرجال سواء في الولايات المتحدة . وليس هناك شك في أنهن قد كسبن الشخصية التي أشارت إليها إديث ليز . ولم تم هذه الحال الجديدة لدعوة نسوية ، وإنما لأن هناك قوات اقتصادية جديدة دعت إليها هي ، قبل كل شيء ، هاتان الحربان الكبيرتان لأنهما لما جندتا للجيش والمصانع الكثير من الرجال أكرهتا المجتمع الأمريكي ، بل المجتمعات الأوروبية أيضاً على استخدام المرأة في المصانع والمتاجر والمكاتب .

ومما زاد هذا الاتجاه قوة أن واجبات المنزل قد اختصرت بالمخترعات الجديدة . فإن الطبخ بالضغط وبالكهرباء قد جعل تهيئة الطعام عملاً

لا يتجاوز دقائق بينما كان يستغرق الساعات قبل خمسين أو ستين سنة .
والكنس الكهربائي : وكذلك الغسل الكهربائي ، قد أصبحا في ميسور أفقر
العائلات الأمريكية والأوروبية الغربية . بل إن التليفون قد أخذ مكان
الخدم .

وإذا كانت المرأة الأوروبية أو الأمريكية كانت تجد في المنزل
ما يشغلها طوال نهارها قبل خمسين سنة ، فهي لا تجد فيه ما يشغلها نصف
ساعة في اليوم كله . فهي من ناحية تجد أن الأعمال العامة خارج البيت
تناديها وتقدم لها المرتب الحسن في المتاجر والمصانع والمكاتب ،
ومن ناحية أخرى لم تعد تجد في البيت ما يغريها بالبقاء فيه أو
يضطرها إليه .

فهذا الذي أبصرت به إديث ليز قبل نحو ستين سنة قد تحقق في
أيامنا . ولا بد أنها قد بصرت بهذه القوات الاقتصادية التي كانت تعمل
في الخفاء ، وتسرى في المجتمع ، وتنقل المرأة من المنزل إلى المصنع . وهي
في دعوتها إنما كانت تعبر عن هذه القوات أو عن بوادرها الخفية كما
كانت تحسها وتتوقع نموها .

كانت إديث ليز قبل نحو خمسين سنة تحلم بما تم في أيامنا من الوعود
الاقتصادية التي حققت استقلال المرأة وكونت شخصيتها .

وكانت آراؤها هذه تغري أمثال هافلوك إليس بحبها والتعلق بها .
وقد تعارفا ، وبقيا مدة غير قصيرة وهما يتعاونان في الدراسة ويتبادلان
في عطف هذه الآراء التجديدية التقدمية . . . وكانت لندن تحتمر في
تلك السنين بآراء تقدمية عديدة .

وتم زواجهما ، وهما تبدأ قصتنا أو عبرة القصة التي قصدنا إليها
حين قانا إنه ، أي هافلوك إليس ، قد اتخذ أسلوباً معيناً من العيش .

ذلك أننا نفهم من الزواج أنه ارتباط مادي كما هو ارتباط رويحي بحيث يعيش الزوجان في منزل مشترك وإن لم يناما في سرير مشترك ، يشتركان في الراحة والنوم ، ويأكلان من مائدة واحدة ؛ ولهما اقتصاديات منزلية مشتركة .

ولكن هذين الزوجين كانا على نية الابتداع لبدعة جديدة هي الزواج الاتفصالي ! فإنهما بعد انقضاء شهر العسل عاد كل منهما إلى منزله ، يتلاقيان بمواعيد ، ويشتركان في سريرهما بمواعيد ، كأنهما عاشقان وليسا زوجين . ولم يكن هذا الا تفصال يرجع إلى ضعف أو نقص في حبهما وإنما كان عن مبدأ . وهو أن كلا من الزوجين يجب أن يستقل بحياته وحرفته وسكنه وبرنامجه يومه لا يفسد عليه ذلك زوجه الآخر .

أو بكلمة أخرى : نحن نرى في الزواج حياة شاملة تحتوي على جميع التفاصيل الأخرى ، في حين كان هذان الزوجان يريدان فيه أنه بعض الحياة فقط ، وأنه يجب أن يترك الزوج حراً لا يتدخل الزواج في تفاصيل حياته ولا يشملها إذ هو ، أي الزوج ، إنسان أولاً له طموحه وآماله وحرفته وهوايته وملذاته . وهو يجب أن يجد الحرية كي يمارسها جميعها في خلوة وفي استقلال لا يفسدهما عليه الزوج الآخر .

وقد عاشا على هذا الأسلوب أكثر من عشرين سنة يتزاوران كأنهما ضيفان . وفي كل عام يقصدان إلى قرية في الريف أو إلى أية بلدة على الشاطئ للتشبية أو الاصطياف فيقضيان نحو شهر معاً في بيت واحد . حتى إذا عادا إلى لندن استقل كل منهما بمنزله دون الآخر .

وما يذكر أن غريباً لقيهما في القطار فلم يعرف من حديثهما

أنهما زوجان ، إذ كان كل منهما يداعب الآخر ويلاطفه أو يناغيه
وظن أنهما عاشقان .

على أن هذه السعادة « الزوجية » لم تدم . فإن الزوجة أحست هوى
جنسياً استسلمت له . فأحبت شاباً ، ثم عادت فأحست انحرافاً
فأحبت فتاة . وفسدت العلاقة الزوجية بسبب ذلك . ولكنهما لم يعمدا
إلى الطلاق .

وهنا يعلل بعض القراء هذا الشذوذ الذى وقعت فيه الزوجة بأنه
كان النتيجة المحتومة لهذا الانفصال .

واعتقادى أن هذا الاستنتاج قد يكون صادقاً . فإن الرجل حين
يعيش منفرداً معزلاً للمرأة ، وكذلك المرأة حين تعيش منفردة معزلة
للرجل ، كلاهما يعود عرضة للشذوذ الجنسى . وخاصة إذا كانت هناك
زعزعة نفسية سابقة كما نستطيع أن نستنتج مما حدث لهذه الزوجة
المسكينة التى احتاجت - فى فترة من حياتها - أن تلجأ إلى مستشفى
الأمراض العقلية .

الواقع أننا نجد فى أخلاق هذه الزوجة رعونة وتقليباً لا يدلان على
عقل رصين متزن . فإنها احترفت الزراعة سنوات ، ثم احترفت النشر ،
أى نشر الكتب ، وأخفقت فى العملين . وكان من رعوتها هذه أن طلبت
الانفصال الشرعى ، وهو فى إنجلترا دون الطلاق .

فهل نعلل إخفاق حياتها بهذا الزواج الانفصالى ، أم نعزوه إلى أنها
كانت من الأصل مزعزعة النفس لم تستطع الاستقرار ؟
أظن أن التعليلين منشولان .

والذى نحسه حين نقرأ سيرة هافلوك إليس بقلمه أن حبه لها قد بقى
إلى يوم وفاتها . بل هو يقص علينا إحساساته الأليمة حين رآها

تجرى وراء هذا الشاب الجميل ، ثم بعد ذلك حين زاغت بها الشهوة إلى إحدى الفتيات ، ثم هو يصف لنا في مرارة كيف حمل جسمانها إلى المرمدة حيث أحرق وكيف حمل اللحاء الرماد وذره في الجهات الأربع في الحديقة .

• • •

والآن نقف كى نتأمل هذا الزى الحديد للزواج أو هذا الأسلوب الحديد للعيش . . . وهما زى وأسلوب يتفشيان هذه السنين الأخيرة في الولايات المتحدة بدرجة خطيرة ، وفي أوروبا الغربية ولكن ليس إلى المدى الذى بلغا ، بين الأمريكين .

وكان « ليون بلوم » الرئيس الاشتهر كى السابق للوزارة الفرنسية يدعو إليه ، ويقول إنه خير الأساليب للعيش ، وعلينا هنا أن نفترض الافتراضات والاحتمالات . فنقول إن خروج المرأة من البيت إلى المجتمع في النصف الأول من هذا القرن كان منتظراً . وقد زادت الحربان الأخيرتان تأكيداً لحاجات المصانع إلى عمل المرأة بدلا من الرجل الذى ذهب إلى ميادين القتال . ثم إن المساواة في التعليم قد جعلت للمرأة كفايات حرفية أهلتها للعمل والكسب . وأخيراً إحالة المنزل من مؤسسة تقوم على العمل اليدوى إلى أخرى تقوم على العمل الكهربائى ، قد جعل بقاء المرأة في المنزل طوال النهار شيئاً غير معقول .

وجميع هذه الاعتبارات قد بلغت ذروتها في الولايات المتحدة لأن المنزل هناك « مكهرب » والمرأة تكسب كالرجل . وكلمة « الشخصية » قد اكتسبت لهذا السبب معناها العصرى للمرأة في أمريكا . والمرأة التى تنشئ تكوين شخصيتها إنما تنشدها بالتعلم والاحتراف والاختلاط بالمجتمع ، وليس بالانزواء في البيت وهى لذلك حين تتزوج تنصرف

على استبقاء حرفتها ونشاطها الاجتماعي . وتزيد هذا الإصرار قوة بأن تطلب بقاءها منفصلة في منزلها وقت الزواج كما كانت أيام عزوبتها .
 وحجتها أن حياتها الخاصة وما جمعت حولها من أصدقاء وكتب واهتمامات يجب ألا تنقطع بالزواج . ولكن اشتراكها في منزل زوج يؤكلها ثلاث وجبات كل يوم ، ويقدم أصدقاءه على حياتها الخاصة ، وربما يعترض على أصدقائها هي ، هذا الاشتراك لا يترك لشخصيتها المجال الحيوي كي تنمو وترقى . لذلك يجب أن تعيش حياتها الخاصة بعد الزواج كما يعيش هو حياته الخاصة . ووسيلة ذلك أن يعيش كل منهما في منزله الذي كان يعيش فيه أيام العزوبة .

وكثير من الأزواج الذين اضطلوعوا بمهام واشتغلوا باهتمامات تزيد على مألوف العامة يحسون الوجاهة في هذا المنطق . وليست المرأة وحدها هي التي تطلب في أمريكا وأوروبا الغربية هذا الزواج الانفصالي ، وإنما هو للرجل أيضاً حين يرصد نفسه لأهداف اجتماعية يحس أن الروابط الزوجية تقيدته وتحول بينه وبين بذل ماله وعمره لتحقيقها . فإن رجل العلم أو رجل الأدب ، أو رجل الفن أو السياسة ، كل هؤلاء يجدون أن الحياة العائلية بمألوفها وارتباطاتها لا تتفق وما يضطلعون به من مسئوليات جسيمة سواء أكانت لأشخاصهم أم لوطنهم .

• • •

عاش. هافلوك إليس نحو عشرين سنة أخرى بعد وفاة زوجته . وقد شغفت به بعد ذلك سيدة فرنسية وعاشت معه إلى يوم وفاته منذ نحو عشر سنوات .

وقد قرأت معظم ما ألفه هافلوك إليس . وإني أحس أنه كان على فهم عميق للحضارة الأوروبية ، وأعنى بهذا الفهم العميق أنه كان يصل حاضر

أوروبا بعصر نهضتها فيما بين عام ١٤٥٠ وعام ١٥٥٠ حين شرعت تغير عقائدها وأسلوب معيشتها .

وما زالت أوروبا حتى هذا العام في سبيل هذه النهضة ، تغير عقائدها واسلوب معيشتها . وهذا الزواج الانفصالي هو بعض تجاربها التي سوف تثبت الأيام أنها حسنة أو سيئة .

والفرق بين أوروبا وأقطار الشرق أن الأولى دائبة في التجارب ، تجدد وسائل عيشتها وتغير في مؤسساتها ، أما الشرق فيضني على مؤسساته قداسة تجمد تطوره وتجعل أبنائه يعيشون في عام ١٩٥١ كما لو كانوا يعيشون في عام ٩٥١ أي قبل ألف سنة .

وقد رأى الأورينيون أن العائلة كانت في الماضي تربي الشخصية ، أما الآن فإنها تعوق هذه التربية . لأن الإنسان الحديد قد زاد إحساسه الاجتماعي عما كان عليه قبل مائة سنة . فهو في المجتمع بذهنه وجسمه في عصرنا أكثر مما كان من قبل ، لأنه يشترك في السياسة والتطور الاجتماعي . ويشترك في المشكلات الاجتماعية والاقتصادية .

والعائلة بتأليفها الماضي هي إلى حد ما ضد المجتمع . كما نرى مثلاً في ذلك الرجل العائلي المسرف في التزام بيته ، من مكتبته إلى بيته ، يعيش مع أولاده ، ولا يفكر في غير سعادتهم ، فهو « فاضل » من الناحية العائلية ، ولكن اهتماماته الاجتماعية في هذه الحال ضعيفة .

ونحن نلاحظ أنه عندما يقوى المجتمع ، ويتولى الحكم ، وتكون له الكلمة العليا كما هي الحال في الأمم الديمقراطية ، بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، تضعف الروابط العائلية . إذ يكثر الطلاق . وأيضاً يتجه الرجل كما تتجه المرأة إلى نشاط آخر خارج البيت . . ولكن ليس شك أن الرجل الاجتماعي ، وكذلك المرأة الاجتماعية ، كلاهما

يمتاز بشخصية أكبر وأنضج من الرجل العائلي أو المرأة العائلية . وخاصة إذا كان هذا المجتمع حرّاً لا تدوسه حكومة مستبدة ولا تغطي عليه قوات بوليسية تحرمه تطوره وارتقاءه .

إننا نحس حينئذٍ نحو العائلة وما فيها من استمتاعات الطفولة بين الأبوين ، ولكننا ننسى أن الأم في السنين الأولى من العمر هي كل شيء ، وأن قيمة الأب ضئيلة . والزواج الانفصالي ، كما هو شائع في أيامنا في الأمم الغربية ، يجعل التصاق الأم بأطفالها مكفولاً كما كان الشأن قبلاً .

وبالطبع ، هذا الزواج الانفصالي لا يمكن أن ينشأ ، إلا إذا كان الزوجان يريان ضرورته لرفقهما . أما إذا لم يجدا هذه الضرورة فإنهما يعيشان معاً . وأغلب الظن أن هذا الزواج الانفصالي لا يزيد في الوقت الحاضر على واحد في المائة ، أو أكثر أو أقل قليلاً ، في الأمم الغربية التي أشرنا إليها . وذلك لأن هذا الإنسان الحديد الذي ارتقت شخصيته وزاد إحساسه الاجتماعي على إحساسه العائلي لا يمكن أن يزيد على واحد في المائة من السكان في أرقى أمة .

وعبارة « الإحساس الاجتماعي » تعني الاهتمامات المتعددة بالعلم والفلسفة ، والفن ، والاختراع ، والاكتشاف . لأن هذه الاهتمامات تحتاج إلى إرصاد القوى كلها لإتمامها في خلوة واستقلال . وقد كان هاقلوك إليس من هذه الناحية إنساناً جديداً . ولكننا لا نستطيع أن نبت برأى في هذه الجلدة ، هل هي للسعادة والخير أم للتعاسة والشر ؟

چوركى
والأديب المكافح



فى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى نصفه الثانى ، كانت روسيا التى
هى الآن جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفىيى : تتنازعها حركتان
أدبيتان ، أو الأخرى اجتماعيتان ، إزاء ضغط الثقافة الأوربية التى كانت
تزحف إليها من أوربا الغربية والتى فتح لها بطرس الأكبر صدره حين
أراد أن ينقل روسيا من الشرق إلى الغرب .

وكان ، إزاء هذا الضغط الزاحف ، تنشط حركة أخرى يقول دعائها
إن الروس صقالبة لا شأن لهم بالأوربيين . وإن هؤلاء الصقالبة روحاً
وتقاليد وعادات يجب على الروس أن يحافظوا عليها وألا يتلوثوا بالحضارة
الأوربية الفاسدة .

وكان تولستوى ودستوفسكى داعيتى هذه الحركة الصقلبية ، كما كان

تورجنيف وجوركى داعيتى الاتجاه الأوربى . وكان التصادم الفكرى بينهما كثيراً .

وهذا التصادم قد رأينا مثله فى مصر . ففى الخمسين أو الستين سنة الماضية رأينا دعاة السفر للمرأة ، مثل قاسم أمين ، يتجهون نحو الغرب ويقولون بالأخذ بالحضارة العصرية . كما رأينا دعاة الحجاب ، مثل طلعت حرب ، يقولون بأننا شرقيون لنا تقاليدنا التى تفضل التقاليد الغربية . بل كذلك حدث فى اليابان والصين والهند . ولكن فى جميع هذه المصادمات يتغلب دعاة الحضارة الغربية لسبب مترد بسيط ، هو أنها ليست غربية . إذ أن وصفها الحقيقى أنها عصرية جديدة ، فى حين أن ما يسمى حضارة شرقية ، أو صقلبية ، إنما هو تلك العادات والتقاليد القديمة التى أثبت الاختبار أنها ليست كفتناً للوقوف فى وجه الحضارة العصرية .

الحضارة العصرية الصناعية منتجة ، توفر المال والقوة للغربيين . أما الحضارة الشرقية الزراعية القديمة فلم تكن منتجة إلى حد الوفرة ، ولذلك يحيا أبناؤها فى فقر وضعف يغرى المستعمرين الأوربيين باستغلالهم واستعمار بلادهم .

بقيت هذه المعركة بين دعاة القديم الشرقى والحديد الغربى مستعرة إلى عام ١٨٨١ ، حين قتل القيصر إسكندر الثانى . وعندئذ سادت البلاد رجعية سوداء كان من نتائجها أو وسائلها منع المؤلفات اليسارية الأوربية من الدخول فى روسيا واضطهاد المؤلفين الاشتراكيين . وفى مثل هذه الظروف تجرى الدعايات المضطهدة فى الظلام ، وتختمر بأشد وأعنف مما كانت تختمر لو كانت مكشوفة . إذ عندئذ يدخلها العنف الذى لا يتفق والحركات المكشوفة .

ولذلك فشت الجمعيات السرية التى يتحدثنا عنها جوركى ، الذى كان

وقتشد شابًا حوالي العشرين ، يجوس خلال الأفكار ، والناس ويحيا شريداً يتنقل من حرفة إلى حرفة لسد الرمق .

وفي هذا الضغط أو الكبت . عقب مقتل القيصر ، تبخر الصراع بين دعاة الصقلبية ، أى الشرق . وبين دعاة الحضارة الغربية . وأخذ مكانه صراع أعمق وأبعد بين الرأسمالية والاشتراكية .

وكانت الرأسمالية بازغة فى روسيا . قد جلبها المستعمرون ، أى المستغلون ، من الغربيين الذى ألفوا الشركات لإيجاد المصانع . واشترك معهم الأثرياء من الروس ، الذين آمنوا بالحضارة الغربية والذين وجدوا الظروف ملائمة لاستغلال الثروة المادية ، والبشرية الروسية ، وذلك عقب إلغاء النظام الإقطاعى السابق وتحرير عبيد الأرض ، أى العمال ، الذين لم يكن يسمح لهم من قبل بترك الأرض إلا بإذن المالكين .

واتحد الاشتراكيون والأحرار فى التوجيه السياسى للشعب الروسى ، وحدثت ثورة عام ١٩٠٥ التى كانت فى صميمها مظاهرة أحالها طغيان الحكومة القيصرية إلى مجزرة قتل فيها أكثر من خمسمائة ، غير آلاف الجرحى . وكان يقودها إلى الفشل الكاهن « جابون » الذى دعا المتظاهرين إلى ألا يحملوا السلاح ضد « الأب الصغير » أى القيصر .

ولكن الأب الصغير كان يحمل السلاح هو وآلاف من جنوده . استعملوا جميعهم السلاح لقتل الجماهير المتظاهرة والتى لم تكن تطالب من القيصر أكثر من حكومة دستورية عادلة توفر الحبز والعمل لأبناء الشعب الجائعين .

وهنا نجد مكسيم جوركى لأول مرة يشترك فى هذه الثورة ، ويتعلم منها . وكان أول ما تعلم من دروسها أن عرش القيصرية لن يهدمه

الأحرار ، وأن أحزاب الأحرار لم يعد لها مكان في القرن العشرين .
وأن الاشتراكية وحدها تتحمل عبء التغيير المنتظر بإيجاد جمهورية
بدلاً من القيصرية .

وقصته العظيمة « الأم » التي ظهرت في عام ١٩٠٧ هي التعليق على
ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . كما هي إرشاد وإلهام للشباب الثائرين في روسيا
حتى لا يقنطوا من النجاح المنشود في ثورات أخرى .

* * *

ذكرت الصراع بين دعاة الصقلبية الشرقيين ، وبين دعاة الحضارة
العصرية الغربيين

هذا الصراع تغير ، أو تطور . إلى حركتين جديدتين فيما بين عامي
١٩٠٠ و ١٩١٤ . فإن الاتجاه الاشتراكي بين المفكرين والأدباء حملهم
على الانحياز للإنسانية ضد الوطنية .

« نحن للعالم وللسنا لروسيا . لسنا وطنيين . نحن عالميون » .

هذا كان موقفهم . وكان منطقتهم هنا أنه ما دمنا نعمل للاشتراكية
فيجب ألا تكون هناك فوارق في الوطن ، وإنما نهدف إلى خدمة
الإنسان مهما يكن ، سواء أكان روسياً أم مصرياً أم صينياً أم إنجليزياً .
في حين كان خصومهم يقولون روسيا أولاً . نحن وطنيون .

وجاءت الحرب في عام ١٩١٤ ، فتغلب بالطبع الوطنيون . ولكن
لفترة قصيرة ، واستحالت الوطنية إلى نزعة حربية عنيفة ضد ألمانيا .
وهذا ما كان ينتظر .

ولكن جوركي بقي على ما كان عليه داعية للسلم حتى مدة الحرب .
داعية للإنسان ، الإنسان العالمي .

* * *

عاش جوركى أربعين سنة وهو يكافح فى صدره مرض الدرن ،
 أى السل . وأمضى معظم حياته فى جنوب إيطاليا ابتغاء الشمس والدفء
 ولم يستسلم لهذا المرض ، ولم ينم له . بل كان يعمل ، ويخرج فى الهواء
 ويمرن عضلاته . لأنه كان يحس أنه فى سباق مع الموت . وعاش ٦٨
 سنة كان يمكن بالطبع أن تكون ٨٠ أو ٩٠ لولا هذا المرض ، ولولا
 ذلك الكفاح الآخر الذى كافح به الفقر والحربان فى صباه كله
 وبعض شبابه .

لقد نشأ جوركى فى أسرة من الفقراء الذين جر عليهم الفقر طائفة
 غير صغيرة من الكوارث . فرأى بعينه الإجرام فى أعضاء أسرته .
 كما أن الجوع قد حملة على أن يحترف أوضاع الحرف . بل كان احترافه
 لهذه الحرف أقرب إلى التشريد منه إلى الاحتراف . فعمل خبازاً ،
 وبائعاً جوالاً ، وجامعاً للخرق ، وبستانياً ، وبائعاً للأيقونات المقدسة .
 بل إنه احتاج أن يصيد العصافير كى يأكلها ويشبع بها جوعه .

وليس غريباً علينا أن نفهم أن قصته « من الأعماق السفلى » تحتوى
 أشخاصاً يشهدون أو يطبقون أولئك الذين خالطهم فى صباه وشبابه .
 بل ليس غريباً علينا أن نفهم أنه قد ألهم الواقعية فى الأدب لأن مارآه
 من واقع حياة هؤلاء الناس قد ألهمه هذا المذهب .

إنما الغريب أن نعرف أنه تغلب على هذا الوسط السيئ فلم يقتد
 بأحد من أولئك المجرمين ، بل رفع نفسه فوق وسطه . فلم يتعود شرب
 الخمر ، ولم يقنع بالبطالة والتشرد ، ولم يقع فى جريمة أو فساد آخر .
 وإنما خرج من هذا الظلام ينشد النور فى درس المذاهب واقتناء الكتب
 والتفكير فى الإنسانية ، وقرقية شخصية . تغلب على وسطه ، وتغلب على
 هذا الميكروب الذى كان يأكل رثتيه مدة أربعين سنة .
 ونحن هنا إزاء رجل نجح فى الأدب وأخرج الكتب العظيمة .

ولكنه قبل أن يخرج كتاباً من مطبعة أخرج لنا حياته التي نجح في تأليفها . وحياته هذه هي خير مؤلفاته . وهي التي تلهمنا أكثر من أى كتاب من كتبه .

ولكن ما هو الحافز في هذه الحياة ؟

* * *

أعتقد أن أعظم نعمة أنعمت بها الأقدار على مكسيم جوركى أنه منذ بداية شبابه ، كما نخبرنا هو عن ذلك في ترجمة حياته ، عرف المذهب الاشتراكي . وكان هذا المذهب جديراً بأن يلصق بقباه أكثر مما يلصق بقلب أى إنسان آخر ، لأنه رأى بعينه ، واختبر بأسلوب عيشه في الفقر والتشريد والصعلة ، أكثر مما كان يرى ويختبر غيره . فكان للاشتراكية الوقع العميق في نفسه .

وهذا الوقع هو الذى نقله من الواقعية إلى الرومانسية . لقد اكتسب الواقعية مما رأى واختبر . فصار ينقل إلينا في أدبه صوراً من الفقير والحرم ، وما يجران على الفقير المحروم من الانهيار النفسى والتفكك الأخلاقى في بعض الأحيان . كما يبعثان في أحيان أخرى قوة جديدة للتغلب والسيطرة على الوسط .

ولكن هذه الواقعية التي اكتسبها من واقع حياته الأولى استحالت عنده بالمذهب الاشتراكي إلى رومانسية علمية . فصار يرسم لنا الأهداف الجديدة للارتقاء الشخصى ، وأيضاً للارتقاء الشعبى عن طريق العلم الذى يخدم الإنسان ويسخر الطبيعة ويغيرها لتوفير الرفاهية للجميع .

إن بعض الناس يؤمنون بالاشتراكية لأنها عدل ورحمة . ولكن المفكر العلمى يؤمن بها لأنها علم تفتح لنا أبوابه في النظام الاشتراكي

فقط حين تنطلق الطاقات لجميع أبناء الشعب للإنتاج والاختراع والاكتشاف والثراء والرخاء .

وهذه هي اشتراكية جوركي . وهذا الأمل في تحقيقها هو الذي يجعله يحلم بالسعادة ، ويعود رومانسيًا يرسم لنا ما سوف نستمتع به بعد تعميم هذا النظام للعالم .

* * *

قبل ثورة عام ١٩٠٥ الفاشلة كان جوركي يؤلف القصص القصيرة التي يعالج فيها أعماق الفقر والبيؤس ويبعث فيها بنخماثر الثورة . وكان موقفه الاجتماعي من مؤلفاته الفنية هو أن الفقر ساحق عام ، ولكننا نستطيع أن نلغيه بالعلم والاشتراكية . وأن الفقير زرى في معظم أحواله لأنه يحيا في وسط سيئ يحمله على الإجرام والرديلة ، بل يحمله على أن يفتر من الجوع والبيؤس بالحر .

ثم رأى بعد الثورة الفاشلة في عام ١٩٠٥ أن هناك بأساً عامًا ، وأن السلطات الروسية قد استأنفت قسوتها ووحشتها ، فألف « الأم » .

ومغزى هذه القصة أن الثائرين يجب ألا ييأسوا . وهو يشرح ، كأنه الدليل المرشد ، كيف يجب أن يستعد المتآمرون ، وكيف يعرفون الخائن فيتقونه ، وكيف يحذرون الجواسيس . وقصة « الأم » من هذه الجهة ليست قصة فقط ، إذ هي قبل كل شيء دليل يوضح أساليب الثورة . وهذا هو المغزى العام منها .

ولكن هناك مغزى آخر يمكن أن نسميه المغزى الشخصي من الثورة . هو أن العامل الفقير ، عندما ييأس يفسد . ويهرب من الحياة بالحر والرديلة . ولكنه عندما ينهض ، ويحس أنه رجل له آمال في الارتقاء العام وتغيير النظم الاستبدادية ، عند ذلك يعمد إلى نفسه هو فيرقى

شخصيته ويغير أخلاقه . فيشرع في التعلم ، أو ما نسميه « التثقيف الذاتي »
فما هو أن تمضي عليه سنوات قليلة حتى يكون قد انتقل من العامية المهنية
إلى الثقافة العالية . وخاصة إذا كانت هذه الثورة التي ينشدها هي
النظام الاشتراكي .

* * *

كما أن هناك « عقداً » أو « مركبات » في الأخلاق تعين لنا سلوكنا
وأهدافنا . كذلك نحن في دراستنا وثقافتنا نجد أننا في أسر هذه العقدة
أو المركبات الذهنية النفسية التي تكسبنا الحوافز وتبعث فينا النشاط
للدرس ، وتفتأ تملأنا اهتمامات تكاد تكون هموماً مؤلمة ، لا نرتاح إلا بعد
أن نحلها ونفرض من أسرها .

وهنا كلمة عن شخصي أنا من حيث اختباراتي للشهوة الثقافية
والإرشاد للعلوم والآداب . فقد وجدت عقدتين في حياتي كان لهما كل
الأثر في توجيه أبحاثي ودراساتي .

العقدة الأولى هي نظرية التطور التي طرأت على ولما أبلغ السابعة
عشرة من عمري .

وكانت مجلة المقتطف تسميها نظرية النشوء والارتقاء . وما هو
أن عثرت عليها حتى وجدتني في عاصفة من التفكير والتردد .

هذه النظرية ، هذه العقدة ، جعلتني أبحث الأديان ، وأدرس
البيولوجية ، أي علم الحياة ، وأقتني عشرات بل مئات الكتب عن الإنسان
البدائي ونشأة الحضارات ، وأسلوب الحياة عند المتوحشين في أيامنا ، وثورة
العلم على التقاليد في النهضة الأوروبية ، ومعاني التطور الاجتماعي ،
وتاريخ الأرض ، وأصل الكون ، ومستقبل الإنسان ، وأخيراً السيكولوجية ،
أي علم النفس .

كل هذه الدراسات كانت ، ولا تزال عندي ، تعود إلى العقدة الأولى التي غرستها في نفسي نظرية التطور . والمهم الذي يجب أن أذكره أنى مازلت في أسر هذه العقدة . وأن استطلاعاتى الجديدة للثقافة تعود إلى جذورها الأولى حين كانت سنى ١٧ سنة . وهى الأصل فى اتجاهاتى العلمية .

والعقدة الثانية هى الاشتراكية التى طرأت على وأنا حوالى العشرين فى لندن حين التحقت عضواً بالجمعية الفابية ؛ فقد حفزنى هذا المذهب على بحوث واستطلاعات اجتماعية جديدة .

ما هى علة الفقر ؟

ما هو معنى الاستعمار ؟

هل البغاء عند محترفاتهن استهتار أم فقر ؟

هل الجرائم تعود إلى ما يسميه بعضنا «سوء الأخلاق» أم

إلى الفقر ؟

بل كذلك المرض ، يعود إلى عادات سيئة أم إلى قلة التغذية ؟
إلخ . . إلخ . . ودفعتنى هذه البحوث إلى أن أدرس العناصر التى يتألف منها الغذاء الحسن ، بل إلى أن أدرس طرق الزراعة العلمية والتقايدية ، وإلى أن أدرس مشكلة السكان . إلخ .

ولكن نظرية التطور ، ثم نظرية الاشتراكية ، زيادة على ما حملتنى كل منهما على الدرس ، حملتنى أيضاً على الآمال البعيدة ، بل أحياناً المسرفة ، فى مستقبل الإنسان القريب بالاشتراكية .

والذى أفهمه من حياة جوركى أنه انبعث بدراسة العلم والاشتراكية إلى الآمال الإنسائية العظيمة التى نصفها بأنها رومانسية .

إننا فى حديثنا العام نفرض على الدوام أن المذهب الاشتراكى مذهب

إنساني بار ، وأن الاشتراكيين يضحون ولا يكسبون منه شيئاً . ولكني باختباراتي أستطيع أن أكذب هذا الفرض ، وأنا أقول إنني اكتسبت من إيماني بالاشتراكية هذه الدراسات والاستطلاعات التي لاتنقطع ، والتي أحس منها أن ذهني حي ، وأنه في شباب ، ينمو وينضج ، وأنني أتفاعل في حياتي بالمستقبل ، ولا أخشاه ، ولا أتشاءم .

* * *

ولكننا نجد في جوركي شذوذاً ، أو فداذة عجيبة فيما يختص بتأثير الوسط على الأخلاق . فإن الوسط الذي نشأ فيه . وسط الأسرة من الحدود والأعمام والأخوال ، هذا الوسط كان هاوية من الحسة والشراسة والاجرام والرذيلة . وأيما مفكر قد تشبع من الثقافة الاجتماعية ، يقرأ عن هؤلاء الأشخاص الذين نشأ بينهم جوركي ، لا يتمالك الإحساس بأنه ، أي هذا الوسط ، كان جديراً بأن يخلق منه أعظم مجرم في العالم .

ولكن جوركي كذب هذا المنطق ونشأ أعظم إنسان في العالم . وصحيح أنه كانت له في هذا الوسط جدة بارة أحبته وخدمته . ولكن هل يكفي للنشأة الحميدة أن يكون هناك شخص واحد فاضل بين عشرة من الأرزال ؟

وإذا لم يكن الشأن كذلك فالأم تعزو هذه النشأة العصامية التي اتسمت بها حياة جوركي ؟

كان جوركي عصامياً ، ولكن ليس في جمع المال كما هو المعنى العرفي ، وإنما في تأليف شخصيته وتربية إنسانيته . وليس عندنا من تفسير لهذه الظاهرة الفذة سوى أنه تقلب كثيراً في الحرف والمهن ، ورأى وقارن بين الناس . واستعمل ذكائه في الفهم والمقارنة وعرف في غضون ذلك المذهب الاشتراكي . واستطاع أن يصوغ حياته وفق خياله . ونحوه

هو الاشتراكية .

وهنا العبرة لكل شاب ، بل لكل فتاة . فإني لا أكاد أتخيل وسطاً عائلياً أسوأ من الوسط الذى نشأ فيه جوركى . ومع ذلك تغلب على هذا الوسط كما تغلب على مرضه ، السل ، مدة أربعين سنة . وامتلاً آمالاً فى المستقبل الاشتراكى .

• • •

ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر تأثير الوسط أو قيمته فى جوركى ، أو بالأحرى فى مؤلفاته . ونحتاج هنا إلى المقارنة بين تولستوى وجوركى . فإن الذى لاشك فيه أن نشأة المؤلف ، ووسطه العائلى والاجتماعى ، يؤثران على موقفه من الدنيا وآرائه وفلسفته واتجاهاته . بل كذلك على أسلوب تعبيره وموضوع تفكيره . ولا يكاد أحدنا يتغير ويخالف هذه القاعدة إلا إذا عاش فى وسط اجتماعى آخر يزعزع عاداته وعقائده السابقة .

فقد نشأ تولستوى على القمة ، فى أسرة يرأسها كونت .

ونشأ جوركى فى الهوة ، فى أسرة أكثر أفرادها من المجرمين .

ولذلك نجد أن تولستوى ، على الرغم من نقضته وبغضه لمعيشة النبلاء ممن يضارعونه فى الجاه والثراء ، لا يزال يحس إحساسهم . فهو لا يؤمن إيماناً كاملاً بالاشتراكية ، بل لا يؤمن بالحضارة الصناعية . وكل ما نجد فيه أنه إقطاعى رحيم بالفقراء الذين قلما يكتب عنهم ، لأن أبطاله جميعهم تقريباً من النبلاء أمثاله أو من المتيسرين . والرحمة المسيحية عند علاج المساوى الاجتماعى . وهو يؤمن بالدين ، وإن كان يجحد الكنيسة .

العدل عند تولستوى هو الرحمة . وألا نقاوم الشر مقاومة إيجابية .

ولكن العدل عند جوركى هو الحق . ومذهبه مكافحة الشر بالسيف والنار .

وأبطال جوركى هم أولئك الذين أسقطهم الفقر على الحضيض . ولكنه يعمل على رفعهم بإيقاظهم وإيجاد الوعي الإنسانى فى قلوبهم .

تولستوى لم يدع إلى الثورة ، ولكنه أوجد السخط الذى هيا لها .

وجوركى دعا إلى الثورة . واشترك بنفسه فى ثورة عام ١٩٠٥ . ثم عاد إلى روسيا بعد ثورة عام ١٩١٧ ، وخدمها فى أمانة وحماسة إلى أن مات فى عام ١٩٣٦ .

• • •

إن التصادم عند جوركى ، بين واقع حياته وأمانى نفسه ، هو الذى ينعكس أثره فى أدبه . حين يصف لنا رجال قصصه فيصف الإنسان بأنه بليد وخسيس وجاهل وراكذ وأرعن ومغفل .

هذه هى الصفات التى رآها فى الناس ، فى الواقع .

ولكنه يعود فيشب من الواقعية إلى الرومانسية ، فيقول لنا على لسان إبليس فى قصة « الأعماق السفلى » :

« الإنسان . ما أعظمها كلمة »

أجل إن الإنسان سيتصر على بلادته وركوده .

واقعية جوركى جاءت من حياته السفلى مع أخواله وأعمامه .

رومانسيته جاءت من آماله ، بعد أن عرف الثائرين الاشتراكيين ،

وبعد أن اشترك معهم بعقله وجهده .

كان يعيش فى الظلام الرأسالى ويؤمل فى النور الاشتراكى .

كان يعيش فى الرق والفاقة ، ويفكر فى الحرية والرفاهية .

إن القبح في الواقع ، جعله ، في الخيال ، يفكر في الجمال .
وكان اليأس يبعث فيه الأمل .

كان يحلم وهو في عبودية المجتمع الروسي أيام القيصر في سيادة
الإنسان على الطبيعة وعلى الآلة ، وفي قدرة الإنسان ، بعقله ، على
محو الحرافات .

• • •

يجب ألا نتعب من تكرار القول بأن الأديب يجب أن يستنبط من
شخصه « نفساً أدبية » قبل أن يؤلف في الأدب .

يجب أن يكون رجلاً ، كافحاً وإنساناً اشتراكياً .

فأين هي عوامل الرجولة والإنسانية في جوركي ؟

لقد صار يتيماً وهو في السنة السابعة من عمره .

وصار عاملاً يكسب عيشه وهو في التاسعة من عمره .

وبعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل ، وفي حيرة وتقل من عمل

إلى آخر ، وفق اختياره ؟

هذه الأعمال كانت بعد ذلك المواد الخام التي صنع منها قصصه .

وفيما بين عامي ١٩٠٤ و ١٩١٣ أسس واشترك في دار نشر تدعى

« زانافيا » لنشر الأدب الذي يحمل دلالة اجتماعية . وبقى طيلة حياته بعد

ذلك يفهم من الأدب أنه وسيلة لتغيير المجتمعات والناس .

وبقى أربعين سنة يكافح مرض السل (الدرن) الرئوي .

وفي سنة ١٩٠٨ وصف الشعب في كتابه « الاعتراف » بأنه :

« خالق الآلهة . خالق المعجزات » . ويقول فيه أيضاً : « إن قوة

الشعب ، حين يسترشد بالإرادة الذكية . لا تعرف حدوداً تعوقها عن التقدم »

هذا الأمل العظيم إنما أحس به بعد الكوارث العظمى التي جعلته يتألم من الفقر في صباه ، ومن المرض . أربعين سنة ، حتى حاول الانتحار والتمرار من الدنيا . ولكنه خرج من هذا اليأس إلى الأمل الواسع ، فأصبح أعظم مرشد للناس يرشدهم إلى طريق الخير الاشتراكي . وما زلنا نحن ، بعد وفاته ، نسترشد به ونبنى ، أو نحاول أن نبني حياتنا على غراره .

• • •

ولد جوركي في عام ١٨٦٨ ومات في عام ١٩٣٦ . ونفهم من هذين التاريخين أنه أمضى ٣٢ سنة في القرن التاسع عشر و٣٦ سنة في القرن العشرين . ونفهم أيضاً أنه ألف ، قبل الثورة الروسية ، في عام ١٩١٧ ، وبعدها . فكان من دعاة المكافحين المضطهدين ، ثم كان بعد ذلك من أبنائها الموالين .

كان مولده ، فيما كنا نسميه قبل الحرب « نجني نوفجورود » ثم صارت بعد الثورة تسمى باسمه « جوركي » على نهر الثوبلحا الذي نجد ذكره يتكرر في مؤلفاته .

وكانت روسيا قد ألغت الرق الإقطاعي ، ولكن ذكراه كانت لا تزال عالقة بالأذهان . ورأى جوركي في صباه ناساً كانوا أرقاء ، لهم أخلاق إقطاعية في الدرجات السفلى . ولكنه رأى أيضاً بزوغ الحركة الصناعية والرواج التجاري في المدن حيث المصانع والمتاجر .

كانت روسيا في فترة الانتقال تصطدم فيها الأخلاق الإقطاعية التي تعتمد على الإيمان والتواكل والمحافظة التي تقارب الحمود ، والأخلاق الجديدة ، أخلاق المتجر والمصنع .

وكلنا . نحن أبناء القاهرة الذين أمضوا بعض حياتهم في الريف .
نعرف الفرق بين الفلاح ؛ هذا الإنسان القديم . الذي يخرج علينا بأخلاق
الفراعة ، والذي تغلبت عليه الأخلاق الإقطاعية ؛ ثم هذا الإنسان الجديد ،
العامل في المصنع أو المتجر ، بل أيضاً صاحب المصنع أو صاحب
المتجر . هؤلاء جميعاً قد تغلبت عليهم الأخلاق التجارية الصناعية . وهم
يعيشون في المدينة الصناعية المنبهة بينما الفلاحون يعيشون في القرى النائمة
الغافلة .

رأى جوركي القرية التي لم تكد تتخلص من أخلاقها الإقطاعية ،
كما رأى المدينة الصناعية . ومع أنه عرف أن مكانه هو المدينة ؛ هو
الحضارة ؛ هو الصناعة ؛ هو استقلال الشخصية ؛ هو التعقل
والتساؤل بدلا من الإيمان والتسليم ؛ فإنه مع ذلك وجد في المدينة ما يكره
وأعظم ما كان يكره هو المتاجر والعقلمية التجارية .

كان ظهور المصانع نتيجة لإلغاء الإقطاع . وكذلك كان ظهور
المتاجر .

وهنا تذب إلى أذهاننا كلمة عصامي ، أو الرجل الذي يصنع نفسه ،
ينشأ فقيراً ، ثم لا يزال يجد حتى يجمع الثروة الطائلة . ثم يحصل على
لقب ويشيد كنيسة في بلده .

هو رجل متحرر من قيود الإقطاع ، يجد جيوشاً من العمال يختار
منهم ويعين الأجور لعملهم . ويجمع الثروة بعرقهم وجهدهم .

ونحن نعرف العصاميين في بلادنا ، ينشأ أحدهم عاملاً يقطع الحجر
للبناء أو ينقله إلى القاهرة . ثم لا يزال يقتر على نفسه حتى يجمع ثمن
عربة يجرها حمار أو جواد للنقل . ثم يسرف في التقدير حتى يشتري
عربة نقل كبيرة . ولا تمضي عليه السنوات القليلة حتى يكون مقاولاً

يبني العمارات .

والثروة الضخمة تأتي إليه عندئذ بلا عائق . لأنه يستطيع أن يقطع
من الأجور مقداراً يدخره . ثم يعود « رأس مال »

قبل أكثر من خمسين سنة قرأت كتاباً ترجمه « يعقوب صروف »
مؤسس مجلة «المقتطف» عن صمويل سميلز . وكان عنوانه « سر النجاح » .

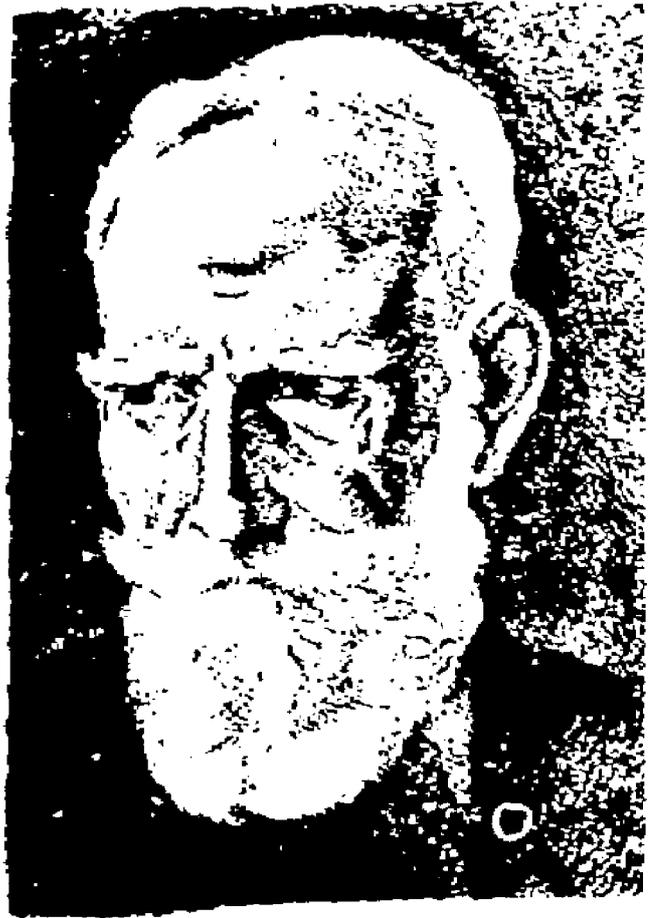
وفي « سر النجاح » هذا قصص متوالية لتعصاميين الإنجليز الذين
نهضوا من الفقر إلى الثراء . كانوا عمالاً فأصبحوا سادة ، يملكون المتاجر
أو المصانع ويستخدمون العمال . قصص نهوض رأس المال في القرن
التاسع عشر .

ولكن صمويل سميلز لم يسأل ، وهو يروي توار يخهم ، كيف جمعوا
هذه الثروات ؟ وهل كانوا يجمعونها لو أنهم كانوا يؤدون الأجور
الحقة لعمالهم . كما لم يسأل يعقوب صروف هذين السؤالين عندما
ترجم الكتاب .

ويشير جوركي إلى هذا الكتاب بالذات ويسخر به . ويعلم كراهته
للتاجر الذي أثرى بإذلال العمال وحرمانهم ما كانوا في حاجة إليه
من طعام أو مسكن أو كساء .

وفي جميع مؤلفاته تقريباً نجد هذه الكراهة للتاجر والصانع ، أي
للرأسمالي ، صاحب المتجر أو صاحب المصنع الذي يثرى بما يكسبه
من عرق العمال .

شو
رفيق حياتي



أحسن ما اقتنيت في حياتي هو ذكرى برناردشو . فقد لقيته حين كانت لحينه لا تزال صهباء ، وتحدثت إليه وسمعت خطبه وقرأت مؤلفاته . وإني لأحس إحساس أولئك الذين نغبطهم ممن عاصروا أفلاطون أو أرسطوطاليس ، واستمتعوا بحديثهما ، وقرءوا وناقشوا مؤلفاتهما ، ورأوا ضماثرهما الذهنية تتفشى في حياتهم .

ولقد عرفته في عام ١٩٠٩ ورافقته إلى سنه الأخيرة إلى أن مات في الرابعة والتسعين ، وهي أربع وتسعون سنة من الخلود . ولقد درست فلسفته فكان لي منها توجيه وإرشاد .

ولكني لم أنتفع بمؤلفاته قدر ما انتفعت بحياته وفلسفته التي - إلى مدى بعيد - تنبع من حياته أكثر مما تتألف من أفكاره . أو أن حياته

قد اندمغت في أفكاره فعاش عيشاً فلسفياً. ولست أنكر النشوة الذهنية التي كنت أجدها عندما أقرأ له مؤلفاً جديداً ، ولكن الإيحاء الدائم والتنبيه المزعج لأسلوب عيشي واختيار أهدافي ، إنما كانا ينبعان من حياته أكثر من مؤلفاته .

فقد تناول برناردشو حياته كما لو كانت مادة خامة ، وجعل يعتملها ويصوغها حتى أخرجها تمثالا جميلا .
وقد ألف نحو أربعين كتاباً ودرامة ، ولكن أعظم مؤلفاته هو حياته .

وإني ألتفت كثيراً إلى المؤلفين من هذه الناحية ، أي كيف ألفوا حياتهم وصاغوها وجعلوا منها بناء جميلا ، كما لو كانوا يرسمون صورة أو ينحتون تمثالا أو يصفون بطلا في قصة أو درامة .

وإني لأذكر هنا روسو ، وجيته ، وغاندى ، وفولتير ، فإن كلا من هؤلاء قد ألفوا الكتب العظيمة ، ولكن أعظم ما ألفوه هو حياتهم .
وإو أنه طلب إلى أن أولف في ترجمة برناردشو وفلسفته كتاباً يحتوى عشرة مجلدات لوجدت هذا الواجب سهلاً أنهض به راضياً في شهر . ولكني أجد صعوبة كبرى في كتابة هذا الفصل عنه ، وهي صعوبة الإيجاز والضغط والاختيار .

ويجب أن أبدأ بكتابه الأكبر وهو حياته . فإنه اتبع أسلوباً من العيش يتفق وكلمته :

« وإنما يكون الإنسان فاضلاً إذا أعطى المجتمع الذي عاش فيه أكثر مما أخذ منه » .

ومعنى هذا أن المجتمع قد كسب بحياته فضائل وأخلاقاً وعلماً وأدباً وحكمة .

وقد نظر إلى جسمه كأنه تحفة غالية . وفهم من الطهارة أكثر مما نفهم ، فجدولها في أمعائه ؛ إذ رفض أن يجعل جسمه جبانة بلحث الحيوانات . والتزم الطعام النباتي ؛ وعاش ٩٤ عاماً سليماً ، فبرهن على أنه كان بصيراً بالغذاء الملائم للتعمير والصحة .

وقد كان التعمير بعض أهدافه ، كما كان بعض فلسفته . فإنه كان يقول إن أعمارنا قصيرة لا تتسع للدرس والعمل والاستمتاع ، ويجب أن نعيش نحو ثلثمائة سنة على سبيل العلاج الوقى لمشكلاتنا الاجتماعية . أما الهدف الأخير فيجب ألا تقل أعمارنا فيه عن ألوف السنين ، لأنه إذا طالت أعمارنا اهتممنا بالدنيا وأصلحناها . أما مادامت أعمارنا قصيرة فإننا نحطف اللذة والمتعة ؛ ولا نبالي إصلاح هذه الدنيا ، لأننا زائلون منها قريباً .

وقد أحب واشتعل في نفسه لهب العشق فلم يطنثه ، ولكنه أيضاً لم يوججه حتى لا يحترق به . فقد عرف الممثلة « إلين قرى » ، وكانت الروعة في الجمال والحكمة في العيش . وكانت تجمع إلى هذا ذكاء الإحساس . فكان يذهب إليها كل مساء ويراها وهي تمثل ، فإذا كان الصباح الثاني كتب إليها خطاباً يتسامى فيه بحبه ويبسط لها أعاجيب من إحساسه وذكاؤه في تفتن وحماسة .

ولم يقابل أحدهما الآخر . وقد طبعت مراسلاتهما بعد ذلك ، وهي جدّيرة بأن تكون دليلاً للمحبين الذين يرتفعون بالحب إلى الثلث الأعلى من الجسم البشري .

ولم يحظ بتعليم جامعي ولا مدرسي ، ولكن أوربا الفهيمة عرفت فيه بعد ذلك أسمى نفس بشرية تعيش في عصرنا . ذلك أنه جعل سني عمره الطويل جميعها سني دراسة ، ومؤلفاته هي مشكلات اجتماعية قد سلط

عليها جهده وذكاءه فدرسها وأخرجها في درامة كوميدية فنية ، نقرأها أو نراها على المسرح فنحس بالضمير الواخذ والعامل الحافز حتى حين نضحك من أشخاصها ووقائعها .

وقد كان المسرح قبله ميداناً للشخصيات ، فأحاله إلى ميدان للأفكار . وكان ميداناً للتبخير بوصف الحياة في القصور أو صلصلة السيوف أو الخيانة الزوجية الرخيصة ، بإنجاد الشخص الثالث بين الزوجين ، فجعله مكاناً للتفطن في معاني الحب والبطولة ، ومعاش الفقراء والمبتوسين ، ومعالجة الطموح الديني ، وتطور الإنسان بعد آلاف السنين .

وكل هذه المشكلات كانت مشكلاته الخاصة التي درسها لأنها بعض تربيته .

عرف برناردشو الفقير والثراء ، وعرف الكفاح في السياسة والفلسفة والعلم والأدب ، وصرخ صرخة فولتير في مأساة دنشواي ، وكشف عن أئوم السياسة الإمبراطورية البريطانية في الحرب الكبرى الأولى . ونال جائزة نوبل فسلمها لجمعية تنمية العلاقات بين أروج وبريطانيا . ودفع ثلاثين ألف جنيه لبناء منازل للعمال . ولم يعرف قط التدخين ، وكان يقاطع الحمر إلى ما قبل وفاته بنحو عشر سنوات . وطاف حول الدنيا ، وصادق العظمين سدنى ويب وزوجته . وكانا يرتفعان إلى مستواه في روح البر بالدنيا ، وكانا يمتازان بالدراسة الاقتصادية .

• • •

قبل أن ألتي برنارد شو وجهاً لوجه كنت قد قرأت بعض مؤلفاته ، فوجدت القوة التحريرية فيها تعادل أو تزيد على ما نقيته في فولتير ونيتشه .

ولما التقيت به في الجمعية الغابية في لندن أحسست كأنى إزاء أجمل

رجل في العالم . فقد كان مهديد التمامة أحمر شعر اللحية والرأس . وكان في نعمات صوته صحلة خفيفة محبة . وكانت كلماته للسانة الإنجليز بشأن دنشواى قد جعلتني أحس كأنه واحد منا نحن المظلومين المضروبين المشتوقين لأنه بكى كما بكينا . ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها إلى يوم وفاته .

بل إن حبي له قد حماني إلى أن أقتدى به في التزام الطعام النباتى . وبقيت على ذلك سنة كدت أموت في نهايتها من الخراب . ولم يكن هزالى بسبب المذهب النباتى وإنما كان بلهلى قيمة البيض واللبن عند النباتيين .

كان برنارد شو يعد نفسه صحفياً قبل كل شىء ، وقد رأينا نحن فيه الفيلسوف العميق والمؤلف المسرحى المبدع والأديب الرصين ، بل أحياناً العالم الذى يستطيع أن يجادل العلميين فى أخص نظرياتهم . ولكنه كان يحمل كل هذه الكفاءات بقوله إنها « صحفية » من حيث إنها تتصل بالمشكلات العصرية . والصحفى العالى يجب أن يرتفع فى تفسير هذه المشكلات ومعها إلى المستوى الفيلسفى . وأن يكون العلم والأدب بعض شئونه الدراسية .

ولد برنارد شو فى عام ١٨٥٦ أى قبل افتتاح قناة السويس بثلاث عشرة سنة . وكانت سنه ٢٦ سنة حين وطئت أقدام الإنجليز أرض وطننا ولست أذكر هذين التاريخين اعتباطاً ، ذلك أن الحادث الأول قد أبرز مصر فى وجدان الأوربيين .

وأما الحادث الثانى فقد أبرز للمفكرين من الإنجليز رجال حزب الأحرار ودناءتهم ورياءهم بشأن الحرية التى داسوها فى مصر ونفوا زعيمها العظيم إلى سيلان .

وكان من هذا أن فكر بعض الأحرار في ترك حزب الأحرار وإنشاء الجمعية القابلية لنشر الدعوة الاشتراكية . وكانت هذه الجمعية التي التحقت أنا بها . والتي أحالتني من شرق جاف إلى أوربي متملن ، كانت السبب الأول لإيجاد حزب العمال الذي أسندت إليه رئاسة الحكومة البريطانية أكثر من مرة . وكان برنارد شو أحد مؤسسيها ، وأكبر داعية لنشر الاشتراكية القابلية . أي التدريجية ، التي تتسلسل وتعالج دون أن تثور وتهدم .

عاش برنارد شو طوال عمره وهو يدعو إلى الاشتراكية ، وقد اتخذ الطرف اليساري منها هذه السنين الأخيرة من عمره . ولكننا على الرغم من أننا نجد أن نظرياته ثورية فإن خطته كانت عملية ، وهو لذلك يعنى أكبر العناية بالبحث في مسائل المجالس البلدية التي يجد فيها بؤرة العمل الاشتراكي .

وهو أفلاطوني الذهن حين يتحدث عن العمال ، إذ يستصغر شأنهم ويقول بإيجاد صفوة معينة لمعالجة السياسة . وكأنه هنا فاشي يتحدث ، كما كان يتحدث موسوليني . ولكن فترات اليأس هذه قليلة عنده ، وسرعان ما كان يفتيق منها إلى الاعتماد على الشعب .

وهو بالطبع عدو الاستعمار وعدو الاستغلال ، ويقول بالتأميم . ومؤلفاته ، رسائل وكتبا عن الاشتراكية ، عديدة وهي تتسم جميعها بأنها شعبية وإيضاحية .

واختصاص برنارد شو الأدبي هو التأليف المسرحي . وهو يضع لكل درامة أو كوميدية مقدمة قد تزيد أحيانا على مائة صفحة ، يوضح فيها وجهته الفلسفية التي حملته على تأليف هذه المسرحية . بل هو أحيانا يزيد على المقدمة بملحق يبرر أو يشرح فيه بعض ما احتاج إلى إيضاحه

على لسان أحد الممثلين . ومن هنا نقرأ الدراما أو الكوميديا كأنها كتاب مستقل زيادة على قيمتها المسرحية .

وأسلوب برناردشو هو الأسلوب العصري ، أى الأسلوب الديمقراطي . فهو يكتب للشعب بلغة الشعب ، وهو لا يعرف التبذخ أو التطرف فضلاً عن التبرج . ونحن نقرأه كما لو كنا نقرأ مؤلفاً في الدين أو الفلسفة أو التاريخ . ومرجعه ، أى مرد جذوره في المسرح ، هو « هنريك إبسن » الذى جعل الدراما الأوروبية اجتماعية . وقد ألف برناردشو في بداية حياته الأدبية كتباً في الدفاع عن إبسن ، ولكن إبسن كان فناناً مسرحياً قبل أن يكون باحثاً اجتماعياً .

أما برناردشو فعكس ذلك إذ هو باحث اجتماعى قبل كل شىء . وهو يستعمل المسرح وسيلة لشرح المشكلات الاجتماعية ، وليس هو مع ذلك الوسيلة الوحيدة .

وقد بحث الدين ومستقبل الإنسان ، والحب والحكومة والبيغاء والفلسفة ، في نحو ثلاثين أو أربعين مسرحية . ومعظم مسرحياته كوميديات قد طعم فيها التفكير الاجتماعى بالفكاهة .

وقد تجددت المسارح الأوروبية بهذا الاتجاه الجديد الذى ابتدعه هنريك إبسن ، ودعمه برناردشو . فالدراما الأوروبية واقعية ، تجابه الحقائق وتعالج المشكلات ، وليست رومانسية خيالية تعيش في الأحلام والأمانى .

• • •

الكلام عن فلسفة برناردشو يحتوى أيضاً بحث ديانته وأدبه وفنه ، لأنه يعالجها جميعها بالروح الدينية . وقد ولد قبل أن يظهر كتاب داروين « أصل الأنواع » بثلاث سنوات . ورأى واشتبك في المعارك الثقافية

حول هذا الموضوع . ورأى الصدمة التي أحدثتها العميدة الحديدية ، وهي أن الإنسان والحيوان من أصل واحد .
وعندما نقرأ درامته الكبرى « الإنسان والسوبرمان » نحس أن هذا الكتاب هو الامتداد لكتاب أصل الأنواع ، كما هو إيمان ديني جديد يدعو إليه برناردشو خلاصته أن ارتقاء الحضارة في المسكن والملبس والتنقل ليس ارتقاء للإنسان ، وإنما الارتقاء الصحيح هو أن يطول عمره إلى ألف سنة ويزيد نحه إلى كيلوجرامين . وأن يكون حصيناً من الأمراض منذ ولادته إلى يوم وفاته . وهذا هو السوبرمان الذي يجب أن يستولد من الإنسان بالانتخاب الحكومي . بحيث يكون منا كما نحن من القرود . أعلى في سلم التطور ، وأذكى ذهنياً ، وأسلم غرائز .

وقد اصطدم برنارد شو مع الداروينيين من حيث إيمانه بأن الصفات المكتسبة تورث ، وأن الوراثة ليست جامدة كما اعتقد فيسبان . وفي السنة الماضية عندما احتدم النقاش بشأن هذا الموضوع بين ليسنكو الذي دافع عن وراثة الصفات المكتسبة ، وبين القائلين بأنها لا تورث ، وأن الوسط لا يؤثر في تغيير العناصر الوراثية ، وقف برناردشو إلى صف ليسنكو أو قل إلى صف لامارك قبيل مائتي سنة . وديانة شو كما نفهمها من مؤلفاته ومن حياته أيضاً هي الديانة البشرية التي تنأى عن الغيبيات ، فإن درامته عن المسيحية « أندروكليس والأسد » حملنا على الاعتقاد بأنه لا يختلف عن رينان في بشرية المسيح ، وأن الله كائن في الإنسان ، ولكن إله برنارد شو هو قوة الحياة التي تقف خلف التطور ، وتعمل للارتقاء ، وتسير مكافحة نحو النور والحب . وإلى هنا تقف « غيبياته » ، غيبيات لا ترضى المؤمن ولا تقنع الملحد ، وهي أقرب الأشياء إلى برجسون . وعندى أنها بعض رواهب القرن التاسع عشر التي علقته به هو وبرجسون ، كما تعلق أساليب الطفولة بالرجل الناضج . وهو يقول : « إنسان بلا دين

هو إنسان بلا شرف . . وهذه عبارة سانية قد استنتجها من حياته .
 إذ هو لم يؤلف قط كتاباً أو رسالة إلا بروح الدين . أى بروح المسؤولية
 أمام المجتمع . بل ماذا أقول ؟ أمام البشر والأحياء والتطور . ومن هذه
 العبارة أيضاً نفهم أن نظرتهم للدين اجتماعية أخلاقية .

ومهمة الفلاسفة هي في النهاية إيجاد النظريات . والجاهل يحتقر
 النظريات . ويزعم أنه عملي . ولكن ليس هناك من الأشياء العملية
 ما هو أفضل من النظرية الحسنة . لأننا نقتصد بها ، ونستغني بها عن
 كثير من الجهود العاث .

وكلاهما ، برناردشو وبول سارتر : يقول بحرية التمرد من حيث حقه
 في أن يعمل كما يشاء . ولكن الهدف يختلف بينهما . فإن برناردشو ينبغي
 من هذه الحرية خير المجتمع ، من حيث إن حرية الإنسان تسير به نحو
 الخير إذا أدى الخير ، ونحو الهلاك إذا قدم الشر . فالمجتمع كاسب من هذه
 الحرية . دعوا السكير والنهم والمستهتر والمجرم يمارس كل منهم حريته ،
 لأنها في النهاية ستقضى عليه بالهلاك فينتفع المجتمع . ولكن بول سارتر يقول
 في خسة فلسفية ليس لها نظير : « أنا وحدي » وعلى المجتمع السلام !

وبرناردشو مثل ولز ، ينظر النظرة البيولوجية للإنسان فيقول بضرورة
 التطور . أجل . إن التطور هو الديانة الأصلية عند شو .

مات برنارد شو وكان أجمل الأساطير في حياته . ولقد رافقته
 وتعلمت منه ، وحاولت أن أقتدى به ، فكنت أصل أحياناً وأقصر أحياناً .
 ولقد حرصنا بالقدوة والعمل على أن نمارس الأدب لخدمة الجمهور ،
 وبعض هذه الخدمة أن نجعل ساستنا وقادتنا متمدينين مستثيرين . وهذا
 هو ما حاولت ، ولكني للأسف لم أنجح .

ولقد أوصى بأن يحرق جثمانه في المرمدة . وقد أحرقت زوجته

فيها من قبل ، كما أحرق جثمانا صديقه ولز وزوجته . وهذا الاحترق هو طهارة أخرى مارسها شو في موته كما مارس النباتية في حياته .

• • •

مما يستحق الملاحظة أن الأمم العربية جميعها فهمت النهضة على أنها التحرر من الأجنبي المستعمر ومن الوطني المستبد . فطالبت بالاستقلال والدستور ، واعتقدت أن كل شيء من أمانيتها قد تم . ولكن الأمم الأوروبية فهمت النهضة أو النهضة المتوالية فيها على أنها قبل كل شيء تحرير الضمير البشرى . ففصلت الدين من الدولة ، وكافحت التقاليد ، وتمردت على سلطة البابا ، وألغتها واعتنقت العلوم ، ومارست الفنون التي تعمل للتطوير الذهني والمعادة البشرية . وهذا ما لم تفكر فيه الأمم العربية إلى الآن مع أنها تحمل من أعباء الظلام ما يرهق الضمائر ويسود العقول .

والناهضون في أوروبا هم علماءؤها وأدباؤها وليسوا ساستها . وهم جاليليو الذي خالف الكنيسة وأثبت أن الأرض تدور حول الشمس . هم لوثر الذي انفصل من البابا وترجم الكتاب المقدس . هم دافنشى الذي قال بأن الجبال كانت البحار تغمرها . هم داروين الذي أرجع الإنسان والحيوان إلى أصل واحد . هم رينان الذي قال ببشرية المسيح . هم إبسن الذي رفع المرأة من الأنثوية إلى الإنسانية .

هؤلاء هم الناهضون الذين غيروا أوروبا ، وبرناردشو واحد منهم فإنه بأسلوب عيشه ومؤلفاته المسرحية دعانا إلى حياة الطهر وبكافحة النفاق الاجتماعى . وكانت مهمته تحرير الضمير البشرى من الحرافات والتقاليد والجن الفكرى ، وبعث الآمال فى مستقبل البشر على هذه الأرض . وصحيح أنه كافح قوات الظلام التي يمثلها الاستعمار

والاستبداد ، ولكنه كافح أيضاً ، وبقوة أكبر ، قوات الظلام التي تمثلها التقاليد وموروث العقائد الغيبية .

ولو فهمنا نحن المصريين دلالة النهضة الأوروبية وعملنا لتحرير ضميرنا ، لكان لنا إلى جنب الحرية السياسية حرية أخرى أكفل للسعادة وأعمل لتكوين الشخصية . ولكان لنا منها موقف آخر حيال المشكلات الاقتصادية والأخلاقية والثقافية . وفي هذه الحال ما كان لمستبد أن يحبس عقولنا بقوانين تحد من حرية الصحافة ، أو يسلط علينا بوليس الأفكار ، كي يعين لنا ما يجوز وما لا يجوز أن تفكر فيه ونكتب عنه .

أجل . إننا ما زلنا بعيدين عن دلالة النهضة الأوروبية .

• • •

ليس من الصدق أن أزعج أنى اقتديت بهرنارد شو . فإنه رفع نفسه إلى مستوى عال من « العيش الساذج مع التفكير السامى » وعاونته على ذلك وسط متمدن لم أجد أنا مثله إلى يوم نخلع فاروق فى مصر حيث يكافأ الرذل على رذيلته ويعاقب الفاضل على فضله . والأصل فى هذه الحال المعكوسة هو الإنجليز من ناحية والتقاليد الشرقية من أخرى .

والكنى حاولت ، وكررت المحاولات ، ولم أتعب ولم أسأم . ونخبر ما أخذت عن بهرنارد شو هو هذا الروح العلمى الذى يسود مؤلفاتى ، فإنى مثله علمى الذهن أدبى الوسيلة فلسفى الهدف . أمتاز بالتفكير العلمى والتعبير الأدبى . وهذا إلى أنه حجب إلى الاشتراكية ونقلها عندى من منطق العقل إلى عاطفة القلب . أجل . إنه جعلها ديانتى العملية . فليس البر عندى إحساناً وصدقة ، وإنما هو البرنامج الاشتراكى الذى يوفر

لكافة الشعب طعام الجسم وغذاء الذهن وحرية الضمير والإقدام على المستقبل .

وهو ، بعد داروين ، الذى جعلنى أستمسك بالتطور وأجعل منه الديانة المذهبية لحياتى وفكرى وهوقى البشرى . وقد كان هو يقول بالحاجة إلى « وزارة للتطور » تعمل لترقية السلالات البشرية . وهذا تفكير يعلو علواً عظيماً على الصغائر التى يشتبك فيها صغار الأدباء .

وحين أعود إلى الأفكار التى بثها فى نفسى برنارد شو ، وحين أنظر إلى الدنيا من عدسته ، أحس السرور والغضب والإقدام والشجاعة والجهد والإرادة . أجل . أحس أن حياتى ترتفع إلى مقام التاريخ وأن لوجودى دلالة فلسفية .

• • •

مات برنارد شو بعد أن ملأ الدنيا بفكاهاته ، وهى ألقاقيع الحكمة . فكنا نضحك ونتعلم . نحن الآن أقل ثراء فى النفس وذكاء فى العقل مما كنا فى أيامه .

وقبل أن يموت بأيام قال زعيم الفكاهة هذا يصف عالمنا فى عام ١٩٥٠ : إن بين كل أمة وأمة حرباً باردة . وبين كل فرد وفرد من أبناء الأمة الواحدة حرباً باردة . وبين كل إنسان ونفسه حرباً باردة !

هذا ما قاله زعيم الفكاهة . وهى كلمات موجعة تصف عالمنا التعس الحاضر . .

• • •

لما مات برنارد شو أطفئت الأنوار فى نيويورك خمس دقائق ، وكذلك أغلقت المدارس فى الهند يوماً كاملاً ، وجرى مثل ذلك أو قريب منه فى أقطار أخرى . ولكن مصر لم تفعل شيئاً من هذا ، كأنها تعيش

في ذمهم لا تقدر التقييم الأدبية والاجتماعية في العالم . والواقع أنها كذلك .
ولو كانت هناك أمة مدينة لبرناردشو لكانت مصر فإن الصفحات
التقليمة التي كتبها عن دنشواي تحمل من غلواء الذهن والعاطفة ما ينظمها
في عداد الأدب العالمي والبلاغة السامية ، وستعيش هذه الصفحات
وسيقراها ، كما قرأها ، الملايين الذين سيغضبون من الاستعمار وسيعرفون
منها حق مصر وباطل بريطانيا .

ولو كنا أمة عصرية لنقلنا إلى لغتنا جميع مؤلفات برنارد شو ،
ولكانت هذه المؤلفات جديدة بأن تحدث نهضة اجتماعية وأدبية . فإن
تفكيرنا السياسي جامد ، ونشاطنا الأدبي إما رجعي يتعمق ظلام القرون
الماضية ، وإما سطحي يتبرج بالألوان على صفحات الجرائد والمجلات .
كأنه عبث الصبيان .

ولذلك ما كان أحوجنا إلى التوجيه السيكولوجي الاجتماعي الذي
يتسم به أدب برناردشو . بل ما أحوج الأديب والسياسي معاً إلى هذا
التوجيه .



غاندى داعية الاستغناء



ولد غاندى إنساناً ومات قديساً .

ولم يكن غاندى مؤلفاً من حيث فن التأليف الكتابي وإخراج الكتب ، ولكنه ألف ما هو خير من الكتب . ألف حياته التى كانت مصباحاً منيراً نحو أربعين سنة للبشر من جميع الطبقات . وقد كانت دعواته أو رسالاته متعددة ، فقد دعا إلى الوطنية الهندية ومحاربة الاستعمار وإلى الاستقلال والحرية كما دعا إلى المغزل والمنسج وإلى الطعام النباتى . ولكن كل هذه الدعوات كان يسودها روح القداسة . ولذلك نستطيع أن نقول إن دعوته الأولى هى القداسة .

ذلك أن وطنيته لم تكن للهند وحدها وإنما كانت إثناء بشرياً لسكان هذا العالم كله .

ولم يكن كفاحه دموياً قائماً على البطش والدم، وإنما كان مقاومة سلبية تنهض على حض الخنود على ألا يتعاونوا مع المستعمرين لمضم حقوقهم وضغط حرياتهم . ولم يكن تدينه لديانة آباءه فقط ، أى الهندوكية . إذ هو كان يجعل صلاته حافلة جامعة للإنجيل والتوراة والقرآن ، والكتب الهندوكية المقدسة . وقد صام أكثر من نصف عام على فترات كي يخلد الهندوكيين والمسلمين على الإخاء . وبذلك رفع السياسة إلى مستوى القداسة .

وقد كتب تاريخ حياته في أسلوب شعبي ساذج يخلو من التبرج لأنه لم يكن كاتباً أديباً لعوباً . ومن هذا الكتاب نحس قداسته . ونهفو إلى ذكره في حنين وحنان معاً . كما نهفو إلى ذكرياتنا للأم الحبيبة أو للعشيقة التي أوسعنا سعادة السنين ، أو للابن الذي حملناه على صدورنا وقبلنا وجنتيه الطريتين .

وذكرى غاندى عندي هي نشوة يغمرنى فيها إحساس فنى كذلك الإحساس الذى أنتعش فيه حين أرى الشفق الزاهى والحقول النضرة والرسم الرائع .

وليست عظمة غاندى من ذلك النوع الذى يحملنا على احترامه ، إذ ليس هناك مكان فى قلوبنا لذكره سوى الحب . وحيث يكون الحب العميق لا يكون الاحترام .

وإني لأكتنز كنوزاً نفيسة فى حياتى لا أرضى بها بدلا . هى أنى عشت وعاصرت تولستوى وثرنارد شو وشفيتزر وغاندى ، وكلهم قديس . وليست قداستهم من ذلك النوع القديم حين كان ينزوى الراهب فى صومعته بعيداً عن المجتمع كي ينشد خلاص نفسه بالصلاة . لأن هذا الراهب هو فى صميمه أنانى يطلب الخلاص لنفسه فقط . ولكن

هؤلاء القديسين العصريين كانوا يتألمون ويصومون ويكافحون من أجل خلاص انبشر .

وقد استطاعوا أن يغيروا الأوزان والقيم البشرية ، وأن يغرسوا في قلوبنا حباً جديداً وأن يعلمونا أسلوباً فلسفياً للعيش .

مات غاندى في سنة ١٩٤٧ وهو أعظم رجل في العالم . ومع ذلك كان كل ما يملك عنزة تدر له اللين وشملة تكسى جسمه لا يزيد ثمنها على ثلاثة أو أربعة قروش .

وكان يغزل بيده ويكتب ويشترى القليل من الفواكه أو الخبز بما يكسب . وبذلك نصب غاندى أمام العالم كاه مثالا يحتج به على أساليب عيشتنا الاقتنائية . ويوضح لنا أن السعادة والشرف والمكائنة أيسر من أن نتكلف من أجلها جميعاً هذا الجهد ، بل هذا العذاب في اقتناء المال والحرواة التعسة التي نعيش بها من أجل التكاثر بهذا المال .

والفهم العام للنسك هو أنه عادة أو رهبنة دينية قد نشأت في الأمم الشرقية ، وهو كذلك إذا فهمناه على أنه انزواء في صومعة .

ولكن الحرمان الذي فرضه على نفسه كل من برنارد شو وتولستوى وغاندى وشفيتزر هو نسك آخر ، نسك غربي ينهل على أسس من الثقافة الغربية غايته خدمة المجتمع وإنهاض البشرية وتجديد القيم الاجتماعية . بل إنه ليس نسكاً . لأن المعنى الأصيل للنسك أنه الحرمان من بعض الملذات في الطعام أو الشراب أو اللباس أو السكنى أو إشباع الشهوات . ولكن هؤلاء الأربعة الناسكين لم يحسوا . وهم يحرمون أنفسهم ما نحسب أنه متاع : أنهم قد فقدوا شيئاً لأنهم قد أخذوا بقيم جديدة تجمل ما نعتز أو نلتذ أو نفخر به من ثراء أو اقتناء ، تافهاً لا يحرص عليه الرجل العظيم بل لا يباليه .

حادثة واحدة في حياة غاندى تدلنا على أن استغناءه لم يحمل معنى القهر ، وهو انقطاعه عن الاتصال الجنسي منذ بلغ الرابعة والثلاثين فهو لم يكن يقسر نفسه على هذا الحرمان . ولم يكن يحس أنه حرمان . ذلك لأن الآمال والآفاق التي كان يترامى إليها تفكيره كانت تغمر نفسه ، وتشغل كل وقته ، وتهيب به ، بما تحمل من عظمة ومجد ، أن ينسى مادونها من ملذات أخرى . فهو لم يكن يشتهي طعام اللحم أو الاتصال بالمرأة أو اقتناء الثراء لأن نفسه كانت مغمورة بما هو أسمى . فالانكفاف هنا ليس قهرياً أمريئياً وإنما هو سيكولوجي . أى أن غاندى قد سد القنوات في شهواته لأنه جمعها كلها نهراً واحداً نحو غاية موحدة هي الإنسانية .

وكي يفهم القارئ هذه الحال ، عليه أن يذكر مثلاً ذلك الأب الذي يفقد ابنه الحبيب ، فإن كثيراً من الآباء في هذه الحال يحسون صدوداً عن المرأة كأن الشهوة الجنسية قد أصبحت حراماً لا يجوز لهم الاستمتاع بها بعد أن ثكلوا الابن الذي أحبوا . وهذا الصدود هو في منطق النفس نذر لشيء آخر .

وكان نذر غاندى الذي سد قنوات شهواته جميعها تقريباً هو حب البشر واستقلال الهند ومحو النجاسة وطرد الإنجليز .

• • •

وما ينبها في حياة غاندى أنه على الرغم من المسحة البدائية الساذجة التي تبدو بها صورته لنا إنما كان غريباً في ذهنه عصرياً في فكره . بل أكاد أقول إنه كان ماركسياً في أسلوب كفاحه للإنجليز ، من حيث إنه فهم الاستعمار على أنه استغلال للأرض والبشر في الهند لمصلحة الإنجليز فجعل مكافحته قائمة على الاستكفاء الاقتصادي بتعميم المغزل والمنسج ومقاطعة المصنوعات الإنجليزية .

ولم تكن دعوته للمغزّل إيثاراً لهذه الآلة اليدوية الصغيرة على مصانع الغزّل الكبرى التي يعوز فيها على الحديد والنار ، وإنما هو وجد أن ظروف الهند . وهي ظروف الحرمان والفراغ ، مع الجوع في الريف وترصد الإنجليز لأية نهضة اقتصادية وتصديهم لقتلها في المهدي ، كل هذا جعله يفكر في الوسيلة التي تعم البيوت الهندية حيث يعمل الأب والأم والأبناء في الغزّل دون أن يستطيع الإنجليز أن يتدخلوا ويمنعوا .

والتأمل للحركات الوطنية في مصر والهند وتركيا يجد ظاهرة تستحق الالتفات ، هي أن جميع الوطنيين في هذه الأقطار الذين قادوا هذه الحركات قد امتازوا بثقافة أوروبية وأخذوا بالقيم والأوزان الأوروبية .

أما الشرقيون الذين نشأوا في حضن الثقافات التقليدية الدينية أو الاجتماعية فلم يتزعموا هذه الحركات ولم يستطيعوا أن يغدوها بتفكيرهم . فإن دعاة الوطنية الهندية : طيلاك وغاندي ونهرو قد تعلموا جميعهم في أوروبا . وكان أتاتورك مقاطعاً بل مجاهداً في مقاطعته للأخلاق الشرقية . وهذا هو الشأن أيضاً في مصر حيث نجد أن الزعامة الوطنية والانتهاض القومي العام والدعوة للاستقلال يحمل علمها ولا يزال يحمله أولئك المستغربون الذين تعلموا في أوروبا ، أو أخذوا بالثقافة الأوروبية وما تحمل من أوزان وقيم جديدة في السياسة والأخلاق والاجتماع .

وقد كان الاستعمار البريطاني في الهند يؤيد تقليد البقرة ويؤيد نظام المنبوذين ويؤيد حجاب المرأة : لأن أعظم ما يؤخر هذه الأمم الشرقية هو هذه التقاليد المتحجرة . بل لولا هذه التقاليد لما استطاع الاستعمار أن يطأ بقدميه أرض الهند أو مصر .

ولعلنا لا ننسى هنا أن الإنجليز كانوا يعارضون حركة قاسم أمين

بشأن تحرير المرأة ، وكانت ناظرة المدرسة السنوية الابتدائية للبنات تصر على اتخاذهن للبرقع .

ولكن الاستعمار مذهب غربي وهو ، مع أنه يدوس الأمم الشرقية ، لا يزال يحمل في طياته السم الذي يقتله في النهاية . لأنه ينقل معه الثقافة الأوروبية التي تحيل بعض الشرقيين إلى أوروبيين في الذهن والعاطفة والنظرة . وهؤلاء يفكرون وينتهون إلى دعوة الاستقلال والتحرير من شيئين معاً وهما الاحتلال الأجنبي وأيضاً التقاليد المتحجرة .

ولذلك ما كاد الهنود يجلبون الإنجليز حتى عمدوا أول ما عمدوا إلى إلغاء نظام الطبقات الذي كان يؤيد بقاء المنبوذين ولولا منبوذاً وزارة المعارف . كما منحوا المرأة حق المساواة بالرجل في الميدان الاجتماعي وأيضاً حق الانتخاب للبرلمان وللوزارة . وهم في ذلك يشبهون مصر .

وليس شيء في الدنيا أسوأ من الاستعمار الأجنبي سوى التقاليد الشرقية المتحجرة . وليس شيء في الدنيا أسوأ من التقاليد المتحجرة سوى الاستعمار الأجنبي . ولكن مع ذلك حين أتأمل بعض الأمم التي لا تزال تعيش في استقلالها واستبداد تقاليدها أحس كأني أرغب في استعمار أجنبي يصفعها الصفعة المنبهة التي توقظها وتنبهها وتحملها على إلغاء تقاليدها .

• • •

ثلاثة رجال يبرزون في حياة غاندى من حيث تكوينه وتوجيهه في التفكير الاجتماعي . وهؤلاء هم : ثورو وثولستوى وروسكين . وكانوا جميعاً من المتمردين على الحضارة الأوروبية يحاولون الارتداد عنها إلى ما هو أبسط وأقل تعقداً وأميل إلى الخدمة والتعاون دون السلطة والاستثمار .

ولا يستطيع التأمل لنشاط هؤلاء الثلاثة ، الدارس لأفكارهم ونظرياتهم ومثلياتهم ، أن يقول إنهم كانوا على بصيرة تامة بالحضارة الأوروبية ومنتهاتها ، ولكن تمردهم كان بمثابة التنبيه إلى ما فيها من أخطار تلصق بالمجتمع الاقتنائى الذى انتهت إليه حيث يعيش كل فرد وغايته الاقتناء والإثراء فى مباراة عنيفة قاتلة .

كان ثورو أمريكياً ، ولد فى عام ١٨١٧ ومات فى عام ١٨٦٢ . . واشتغل بالتعليم وبغيره . ولكنه فى عام ١٨٤٥ ترك حياة المدن وهاجر إلى الغابة ، حيث بنى لنفسه كوخاً وجعل يعيش حياة بدائية يصيد السمك من بحيرة قريبة ويأكل الثمار البرية ويعمل بالأجرة فى الحقول القريبة .

وكان يقضى معظم وقته فى تأمل الحيوان والنبات فى الغابة . وهو واضع عبارة « العصيان المدنى » التى أخذها عنه غاندى . وكان يعنى بهذه العبارة أن لكل فرد الحق فى أن يستقل بشخصيته ويرفض العادات والمطامع الاجتماعية ويعيش وفق مثلياته الخاصة وهو عاص لا يخضع للمجتمع . وبنى إلى عام ١٨٤٧ بالغابة حين عاد إلى المدينة وعاش مع صديقه « إيميرسون » وألف كتاباً بعنوان « والدى أو الحياة فى الغابة » .

وهو يروى فى هذا الكتاب اختباره ، وكيف أن حاجاته جميعاً من لباس وغذاء وسكنى لم تكن تكلفه سوى القليل من الجهد والقليل جداً من النقود .

وواضح أن غاندى حين ترك المدن وآوى إلى معتكفه فى الطبيعة يقنع بما تدره عليه عنزته من اللبن والحبن ، وأيضاً بتنوعه بتلك الشملة التى كان يشتمل بها دون أى لباس آخر ، إنما كان يستضىء بثورو فى حياته فى الغابة . ومكافحته للإنجليز الاستعماريين بشعاره « العصيان المدنى » يعود إلى القدرة على الاستغناء . فإنه نيد الرفاهية فضلاً عن البذخ وقنع

بالقليل الذى لا يستطيع الإنجليز أن يجرمونه منه . وكان ثور و على الدوام فى ذهنه : رجل قانع يعمل عندما يحتاج ، ويرتاح ويتأمل الشمس والشجر والماء والسحاب عندما لا يحتاج . والحضارة القائمة تدعوننا إلى الاقتناء والإثراء والجهد والمباراة . ولكن عبرة ثور و هى كيف نستغنى ؟ وليس كيف نفتنى ؟

أما تولستوى فليس هناك من يجمله . فقد ولد فى عام ١٨٢٨ ومات فى عام ١٩١١ وكان فناً عظيماً يؤلف القصص الخالدة كما كان أخلاقياً متمرداً على الحضارة أيضاً مثل ثور و . وقد حرمت الكنيسة الروسية لأنه ألف كتاباً عن إيمانه وصف فيه المسيح باعتبار أنه إنسان عظيم لا أكثر ، وأن دعوة المسيح إلى الحب البشرى هى الخلاص لجميع الناس وأن « ملكوت الله » كما جاء فى الإنجيل ليس حياة أخرى بعد الموت وإنما هو فى قلوبنا وأنفسنا وعالمنا هذا ، وأنه يتحقق بالحب بين البشر . وقد عاش فى الأرض التى ورثها عن عائلته وحاول تسليم هذه الأرض للفلاحين ، ولكن عائلته منعتة ، وكان يصنع الأحذية بنفسه للفلاحين ، كما أنه أنشأ مدرسة لأولادهم وأصدر مجلة فى التربية .

وقبل وفاته بنحو عشرة أيام خرج هارباً من بيته يريد أن يرضى ضميره ويعيش كأحد الفلاحين .

وقرأ غاندى مؤلفاته وهو فى أفريقيا الجنوبية فتأثر بها كثيراً . وكان أن أسس ما سماه « مزرعة تولستوى » حيث كان يعلم أبناء الهنود ويزرع أرض المزرعة ، ومن هنا نشأت عنده فكرة التعلم بالأمل ، وهى الفكرة التى أحالت التعليم إلى تربية .

ويرى كثير من الناقدين أن الخطة التى اتبعتها غاندى فى مكافحته للاستعمار فى الهند وهى « المقاومة السلبية » أى تقبل العدوان فى صمت

وثبات إنما ترجع إلى تعاليم تولستوى في شرحه للمسيحية ، هذا الشرح الذي جلب عليه حرمان الكنيسة له حتى قال رومان رولان الأديب الفرنسي المعروف : « وحسبي ما قات كى أبين أن غاندى كان ينطوى على قلب إنجيل خافق تحت كساء من الإيمان الهندوكى . أما روسكين الذى أحبه أيضاً غاندى فكان من الأدباء الإنجليز . وقد ولد فى عام ١٨١٩ ومات فى عام ١٩٠٠ . وألف عدداً كبيراً من الكتب فى الفنون والأخلاق والاجتماع . ولما مات أبوه عام (١٨٥٥) ترك له ثروة قدرت وقتئذ بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه فلم يمسكها بل تبرع بها للمنشآت الاجتماعية والتعليمية وقنع هو بأن يعيش بقلمه .

• • •

لم يكن غاندى يضع القواعد كى يتقيد بها . وإنما كان يفرض القاعدة أو المبدأ للاسترشاد الأخلاقى فى الخطوة العملية . ولذلك نجد أن التزامه للمقاومة السلبية لم يكن جامداً . إذ هو كان يلجأ إلى العمل الإيجابى من وقت لآخر . أى أن « العصيان المدنى » لم يكن عنده ركوداً أو اعتزالا أو جموداً ، وإنما كان أيضاً عصياناً مباشراً كما نرى فى حادث الملح .

ذلك أن الحكومة الهندية كانت فى استغلالها الإمبراطورى تحتكر صناعة الملح ، وهو إدام أو تابل يحتاج إليه كل فرد . فالكسب عظيم منه والضرورة تكفل رواجه الدائم . ورأى غاندى فى سنة ١٩٣٠ أن هاهنا فرصة يجب أن تستغل لتحريرك التمرد على الاستعمار وتجثة الشعب الهندى على عصيان القوانين والأخذ بالمشجاعة ، فدعا إلى مظاهرة شعبية تبدأ من معتكفه حيث كان يقيم إلى شاطئ البحر حيث الملاحات الحكومية .

وهناك يخالف غاندى القانون عمداً وينزل المتظاهرون إلى الملاحات

ويحملون الملح مجاناً . وكافح المستعمرون هذه المظاهرة بكل الوسائل ووجدوا من الهنود أنفسهم من أيديهم في تزييف هذه الحرية أو شلها ، فمنعوا القطارات من السفر إلى الشاطئ . ومنعوا الخطابات . وعطلوا الصحف وراقبوها . وأوفدوا البوليس والحيش يحمل كل فرد منهم هراوة ضخمة ، ثم أنحوا على المتظاهرين بالضرب أو بالأحرى بالحبط حتى تحطمت الرؤوس والأجسام وخضبت الأرض بالدماء وألقوا القبض على رأس الفتنة وداعية العصيان غاندى .

ولكن كل هذا لم يهزم المتظاهرين . وبقي العصيان يفشو ويزداد . وامتألت السجون وفاضت . قأسس الإنجليز حظائر من الأسلاك يجلسون فيها الثائرين ، وأصبح المسجونون يعدون بمئات الألوف . وانتشر روح التمرد في جميع أنحاء الهند فامتنع المالكون من أداء الضرائب واستقبال ألوف الموظفين . وتراءى للإنجليز أن الثورة تسير في طريق النجاح وأن الأداة الحكومية قد شلت . وعندئذ فكروا في أساليب أخرى للمكافحة . فأنهم إلى جنب الضرب والاعتقال عمدوا إلى الحكم بالغرامات ، ولكنها كانت تجربة تعلم منها غاندى وتعلم الهنود كيف يكافحون . وفهموا وفكروا ودبروا .

وفي عام ١٩٣٩ عند شوب الحرب الكبرى الثانية ترك غاندى هذا الأسلوب القديم للمكافحة . ودعا دعوة أخرى هي « اتركوا الهند » . وترك الإنجليز الهند في عام ١٩٤٨ . وتحقق الاستقلال .

* * *

وكان الهنود يعيشون أيام الإنجليز في تقاليد الفقر والجهل والمرض ، وليس شيء يعمل للذلة والهوان مثل هذه العناصر الثلاثة التي تجمع شرور العالم كلها . وهى العون الأول للاستعمار . ولذلك حاربها غاندى

جميعها بطراز جديد من المدارس يلائم ظروف القرية الهندية . وهذا الطراز هو ما يسمى الآن « التربية الأساسية » .

في عام ١٩٤٥ كتب أينشتين عن غاندى هذه الكلمات البليغة :

« إن غاندى يتزعم الشعب الهندي لا تؤيده في هذه الزعامة أية سلطة خارجية . وهو سياسي لا يقوم بنجاحه على الحيلة أو المهارة في الوسائل الفنية إنما على القوة الاقتناعية في شخصيته ، وهو مكافح مظفر يحتقر على الدوام أساليب العنف . وهو حكيم متواضع قد تسليح بالإرادة كي يتناسق سلوكه ، وقد أرصد كل قواه لأن ينهض بشعبه ويرقى بمصيره . وقد جابه توحش أوروبا بوقار إنسانيته ولذلك كان على الدوام يرتفع عليها . إن الأجيال القادمة سوف تشك في أن إنساناً مثل هذا سعى بتقديمه على أرضنا »

وهذه كلمات عظيم قد رأى العظمة في غيره وفطن إليها .

• • •

علمنا أن غاندى أيضاً حكمة الحكم ليست بالاقتناء وإنما هي بالاستغناء ، وأنا نستطيع أن نحقق السعادة والمكانة ، وأن ننجز وعد حياتنا على الأرض ، بالقليل من الحاجات دون هذا البذخ الذي يضمننا بلوعة ثم لا يسعدنا الحصول عليه ، وأن ضرورات العيش من مسكن وملبس ومطعم قليلة ، بل إننا إذا أقلنا منها عشنا على أحسن حال كما تتوافر لنا بهذه القلة القوة والوقت للاستمتاع العالية .

وعلمنا نحن الشرقيين أن الاستعمار عدو لا شك فيه ، ولكن هناك ما هو أعدى منه لنا وهو الاستمساك بعادات وتقاليد وقيم ثقافية واجتماعية شرقية لا يصلح أن تبقى في القرن العشرين .